

التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب السابع والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب السابع والثلاثون

الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٥

* (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا
الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ
عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ
وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾)

المفـردات :

(لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا) : أى لايتوقعون لقاء حسابنا ولا يبالون بالإنذار به .

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ) : أى أضمروا الاستكبار فى قلوبهم عنادا للحق وكفرا به .

(وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) : هى كلمة استعاذة ، وكانت معروفة عند العرب فى الجاهلية ، فكان الرجل إذا لَقِىَ من يخافه قال : حجرا محجورا ، أى : حَرَامًا مُحَرَّمًا ومحجورا ، وصف لحجراً للتأكيد كقولهم : موتٌ مائت ، وهُو من الحَجْر ، بمعنى : المنع ، وسيأتى تفصيل ما قيل فى ذلك .

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ) : أى وعمدنا إلى ما عمله الكفار من أعمال البر .

(فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا) : أى تافها لا سبيل إلى الانتفاع به ، فهو شبيه بالهباء الذى يُرى فى الكوة مع ضوء الشمس مُفرَّقا هنا وهناك .

(وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) : أى وأحسن منزلًا ، ومأْوى؛ للاستروا ح ، والاستقرار .

التفسير

٢١ — (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَآئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا . . .) الآية .

هذه الآيات تحكى بعضا آخر من أقاويل الكفار الكاذبة ، وتبين ردها وبطلانها – تحكيها – عَقِب حكاية أباطيلهم فى أمر التوحيد والنبوة والقرآن التى ذكرتها الآيات السابقة ، وأتبعتها ما ينقضها ، ويظهر فسادها .

ولما كان ما حكى عنهم قد بلغ الغاية فى الشناعة والقبح ؛ نبّه سبحانه على أن ما قالوه لا يصدر إلَّا عمن لا يتوقعون الرجوع إليه سبحانه بالبعث والحشر ، فالمراد من عدم رجائهم لقاء ربهم : أنهم لا يتوقعونه أصلًا لإنكارهم البعث والجزاء بالكلية ، لا أنهم لا يتوقعون حسن اللقاء ، ولا يخافون سوء العذاب ، فإنهم ينكرون البعث والجزاء إنكارًا تامًّا .

أى : وقال الذين ينكرون لقاءنا يوم الجزاء : هلَّا أُنزل علينا من السماء الملائكة ، فتخبرنا بصدق محمد – صلى الله عليه وسلم – أو تبلغنا أمر الله ونهيه بدل محمد – عليه الصلاة والسلام – ، أو نرى ربنا أمامنا ، ليخبرنا بما يريده منا ، بغير وسيط بيننا وبينه أو يخبرنا بصدق محمد فى رسالته . وفيما نطقوا به إمعان بالغ فى التكذيب ، والعناد ، يعرب عنه قوله سبحانه :

(لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِيٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا) :

أى : اعتقدوا فى أنفسهم أنها كبيرة القدر ، رفيعة الدرجة زَهْوًا وغرورًا ، وقد دفعهم ذلك إلى أن يسألوا الشطط ؛ لأن الملائكة لا تُرى إلَّا عند الموت ، أو عند نزول العذاب . والله سبحانه : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ »[1] .

وتعقيب حكاية باطلهم بالجملة القسمية ؛ مشعر مع التأكيد بأن ما هم عليه من استكبار وعتوّ ؛ غاية فى القبح والغرابة ، بحيث يحتاج إلى توكيده .

والمعنى : والله لقد بالغوا فى كبرياء أنفسهم ، وفى الظلم والطغيان مبالغة تجاوزوا فيها الحد تجاوزا كبيرًا بلغ أقصى غاياته ، حتى اجترأوا على التفوّه بمثل هذه العبارة الشنعاء

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١٠٣

حيث طلبوا إنزال الملائكة لتشهد بصدق محمد - صلى الله عليه وسلم - أو لتبليغ أمر الله ونهيه بدلًا منه ، أو أن يروا الله عيانًا ليخبرهم بما يريده منهم أو ليشهد بنبوة محمد - صلى الله عليه وسلم - قالوا كل ذلك وطلبوه ؛ مستكبرين أن ينقادوا لبشر مثلهم أيده الله بما يوجب إيمانهم بما جاءهم به من الحق المبين ، ولو أنزل الله إليهم الملائكة لما آمنوا ، كما قال تعالى : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوٓا إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ[1] » .

٢٢ - (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَآئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) :

استئناف مسوق لبيان ما يَلْقَونَه عند موتهم بسبب كفرهم : أى : اذكر حال هؤلاء المجرمين يوم يرون الملائكة عند الموت ؛ لا بشرى لهم بخير يومئذ منهم ، بل تبشرهم بالنار وغضب الجبار فتقول للكافر عند خروج روحه : أيتها النفس الخبيثة فى الجسد الخبيث اخرجى إلى سموم ،وحميم ،وظلّ من يحموم ؛كما يقول تعالى : « وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَآئِكَةُ بَاسِطُوٓا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ »[2] .

وهذا بخلاف حال المؤمنين وقت احتضارهم ، فإنهم يبشرون بالخيرات ، وحصول المسرّات كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ »[3] .

وقيل : (يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَآئِكَةَ) : يعنى يوم القيامة قاله مجاهد والضحاك وغيرهما وما تقدم أولى ، وهذا لا يمنع من أنهم لا يبشرون بخير يوم المعاد ، فإن الملائكة فى هذين اليومين : يوم الممات ويوم المعاد ،تتجلى للمؤمنين وللكافرين، فتبشر المؤمنين بالرحمة والرضوان ،

(١) سورة الأنعام ، الآية : ١١١
(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٩٣
(٣) سورة فصلت ، الآية : ٣٠

وتخبر الكافرين بالخيبة والخسران ، وكان يمكن أن يقال : لا بشرى يومئذ لهم ، بالإضمار ، ولكن إظهارهم بعنوان المجرمين ، لتعليل سلب البشرى عنهم بإجرامهم .

(وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا) أى : وتقول الملائكة للمجرمين إقناطا لهم : جعل الله تبشيركم بالغفران ،والرحمة ،أو بالجنة ،حراما محرما ، وقال بعضهم : إن المجرمين يطلبون البشرى من الملائكة فيقولون لهم ذلك .

وقيل : إن الضمير للكفار ،أى : ويقول أولئك الكافرون للملائكة : (حِجْرًا مَّحْجُورًا) وهى : كلمة تقولها العرب عند لقاء عدوٍّ موتور ، أو هجوم نازلة هائلة ، يضعونها موضع الاستعاذة ، والمقصود من الآية على هذا : بيان أن الملائكة الذين يطلبونهم لتبليغهم ان ينزلوا إلا لتعذيبهم ، حتى إذا رأوهم عند الموت كرهوا لقاءهم أشد كراهة وفزعوا منهم فزعا شديدا ، وقالوا ما كانوا يقولونه عند نزول أمر فظيع ، وحلول بأس شديد : حجرا محجورا ، ومنعا ممنوعًا ،مما نراه من العذاب .

وقوله : (مَحْجُورًا) صفة لِحجْرًا واردة للتأكيد .

٢٣ - (وَقَدِمْنَآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) :

أى : وعمدنا إلى ما عمله الكفار من خير كانوا يعملونه فى الدنيا كصلة رحم وإغاثة ملهوف ، وقِرَى ضيف ، وعفو عن أسير ، وغير ذلك من محاسنهم .

(فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُورًا) : حيث أبطلنا ثوابها بسبب كفرهم ،فلا ينتفع به فى الآخرة وصار فى عدم الجدوى منه شبيها بالهباء المنثور ،وهو :ما يرى فى شعاع الشمس يخرج من الكوة منثورا ، بحيث لا يمكن الانتفاع به ، وقيل : هو ما ذرته الرياح من يابس أوراق الشجر ، قاله قتادة وابن عباس ، وقال ابن عرفة : الهبوة والهباء : التراب الدقيق .

وكل هذه المعانى للهباء المنثور تشير إلى أن الله تعالى أَحْبَطَ أعمالهم الطيّبة إحباطًا تامًّا ، وجعلها لا وزن لها ولا تقدير ،كالهباء المنثور ، كما قال سبحانه : « وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَآءً حَتَّىٓ إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا »[1] .

ولو صدرت عنهم فواضل الأعمال وهم مؤمنون ، لأثيبوا عليها أجزل الثواب .

(١) سورة النور ، من الآية : ٣٩

٢٤ - (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا) :

أى : أن أهل الجنة وهم المؤمنون الصادقون ، يكونون يوم الجزاء أفضل من هؤلاء المكذبين مستقرًّا ومقيلًا ، والمستقر : هو المكان الذى يستقرون فيه أكثر الأوقات للتجالس ، والتحادث والمقيل : هو مكان الاسترواح ، والتمتع ينعمون فى هذين المكانين بما أتيح لهم من خير ونعيم وسُمِّى المكان الثانى مقيلًا ؛ لمَا أن التمتع به يكون وقت القيلولة غالبًا ، وهو ما تعرفه العرب من مقيل نصف النهار ، قال ابن مسعود : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء فى الجنة ، وهؤلاء فى النار وتفضيل أصحاب الجنة على أصحاب النار فى المستقر والمقيل ، إما بالإضافة إلى ما للكفرة المنعَّمين فى الدنيا ؛ على معنى : أن نعيم المؤمنين فى الآخرة خير من نعيم الكفرة فى الدنيا ، وإما بالإضافة إلى حالهم فى الآخرة على سبيل التهكم والتقريع ، ويجوز أن يكون أفعل التفضيل على غير بابه ، فيكون المراد : أن أصحاب الجنة سعداءُ فى كل حال ، على عكس ما عليه أهل النار من الكفار ، فهم فى أسوأ حال .

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾)

المفردات :

(وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَآءُ بِالْغَمَامِ) : الباءُ فى قوله : (بِالْغَمَامِ) بمعنى عنْ ، فهما يتعاقبان ، كما تقول : رميت بالسهم ، وعن السهم أى : واذكر يوم تتفتح السماءُ عن الغمام ، وهو سحاب أبيض رقيق مثل الضباب .

(وَنُزِّلَ الْمَلَآئِكَةُ تَنزِيلًا) : من السماء إلى الأرض بصحائف الثقلين .

(وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) : أى أن يوم القيامة صعب شديد على الكافرين .

وفعله من بابي قَرُب وفَرِح . تقول : عسُر الأمر – بضم السين – عُسْرا وعَسَارة فهو عسير وعسِر – بكسر السين – عَسَرًا فهو عسِرٌ .

التفسير

٢٥ – (وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنزِيلًا) :

يوجه الله النظر إلى هول يوم القيامة ، وما يكون فيه من الأمور العظيمة ، أى : واذكر أيها النبي يوم تتشقق السماء المظلة للخلق ؛ حيث تتفتح عن الغمام ، وهو سحاب أبيض رقيق مثل الضباب ، وهو المذكور فى قوله تعالى : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ »(١) والمراد بالسماء فى الآية : ما يعم السموات كلها ، قال مقاتل : إن المراد بالسماء ما يعم السموات كلها ، وتنشق سماء سماء وروى ذلك عن ابن عباس .

فإذا انشقت السماء وانتقض تركيبها ، وطويت ، ونُزِّلت الملائكة تنزيلًا عجيبًا ، بصحائف الأعمال – نزلت من خلال ذلك الغمام إلى حيث يجتمعون فى صعيد واحد حول الإنس والجن ، وجميع الخلائق ، فيحيطون بهم فى مقام الحشر ، ثم يجىء الرب تبارك وتعالى لفصل القضاء .

٢٦ – (الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) :

أى : أن الملك الحقيقى الثابت دائما صورةً ومعنًى ، ظاهرا وباطنا يكون للرحمن وحده ، يومئذ تتشقق السماء بالغمام وتتنزل الملائكة ؛ لأنه سبحانه له السلطنة القاهرة والاستيلاء الكلى التام فى الآخرة ، وأما المُلْك فى الدنيا للمالكين من الناس فليس ملكا حقًّا ، فإن الله هو الملك الحق فى الدنيا والآخرة ، ولكنه تعالى ملَّكهم ظاهرا ؛ ملك تصرف وإدارة ، يبقى ببقائهم ، ويزول بزوالهم .

ووصْفه تعالى بالرحمة للإيذان بأن اتصافه تعالى بالرحمة الشاملة لعباده جميعا فى دنياهم ؛ لا ينبغى أن يُطيقهم فيها فى أُخراهم ، لعدم استحقاقهم لها بما اقترفوه من أسوأ الأعمال ، ولذا عقبها بقوله : (وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا) : أى : وكان ذلك اليوم صعبا شديدا على الكافرين لطوله ، ولما ينالهم فيه من الأهوال ، ويلحقهم من الخزى والهوان ، كما قال تعالى : « فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ . عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ »(٢) . وفى ذلك

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢١٠

(٢) سورة المدثر ، الآيتان : ٩ ، ١٠

إشارة إلى أنه يكون على المؤمنين سهلًا يسيرا ؛ يقبلون عليه بنفوس مطمئنة ، ووجوه مستبشرة ،كما قال تعالى : « لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ »(١) .

كما أنه لتيسيره عليهم يخفف الله عنهم مشقة طوله ، يدل على ذلك ما نقله الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدرى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما قيل له : ما أطول هذا اليوم ، فقال : « والذى نفسى بيده ، ليُخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصليها فى الدنيا » .

(وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾)

المفردات :

(وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ) : عض اليدين والأنامل كناية عن شدة الغيظ ؛ لأن عض اليدين يحدث غالبا عندها .(٢)

(اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) : أي سببا وصلة تصلنى به ، أو طريقا إلى الجنة .

(يَا وَيْلَتَى) : كلمة جزع وتحسر ، تستعمل عند وقوع الداهية العظيمة والخطب الجسيم .

(لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا) : فلانا وفلانة بغير (ال) كناية عن الإنسان ، والفلان والفلانة بالألف واللام كناية عن الحيوانات كما قال الراغب . وخليلا : صديقاً ، والجمع : أخلاء .

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٣

(٢) ولفظ (يعض) من باب فرح يفرح .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً[1]) : أى أن الشيطان مبالغ فى ترك نصرة الإنسان وإعانته .

التفسير

٢٧ - (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) :

قيل : إن (ال) فى الظالم للعهد ، ويراد به هنا :عقبة بن أبى معيط ، ويراد بفلان المذكور فى الآية التالية :أُبى بن خَلف .

قال ابن عباس وقتادة وغيرهما : كان عقبة بن أبى معيط قد هم بالدخول فى الإسلام فمنعه منه أُبىّ بن خلف وكانا صديقين ، وقد قتلهما النبى - صلى الله عليه وسلم - قتل عقبة يوم بدر صبرا ، وطعن أُبىّ بن خَلف فى المبارزة يوم أُحد فرجع إلى مكة ومات وقد ذكر ذلك القشيرى والثعلبى سببا فى نزول الآيتين .

والظاهر :أن ال فى الظالم للجنس ، فيعم كل ظالم ، ويدخل فيه عقبة بن أبى معيط دخولا أوليا ، وأن فلانا :كناية عن كل خليل ظالم من شياطين الإنس والجن ،وعموم اللفظ لا ينافيه خصوص السبب[2] .

والمعنى : أن كل ظالم فارق الصراط المستقيم ، وأعرض عما جاء به الرسول من الحق البيِّن الذى لامرية فيه فإنه يندم يوم القيامة حيث لا ينفعه الندم ، ويعض على يديه ، ويطبق أسنانه على أنامله حزناً وألماً شأن المَغِيظ المُحْنَق .

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً) : فى الدنيا باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وبذل كل جهد فى نصرة الدين دفاعاً عنه ، وحفاظاً على أهله ،حتى يكون ذلك العمل طريقاً إلى الجنة ، وجملة (يَقُولُ يَالَيْتَنى . .) إلخ فى مَوضع الحال من الظالم ، أو مستأنفة بيانا لما قبلها .

(١) وفعله من باب قتل ،يقتل، يقال : خذله وخذل عنه : ترك نصرته ، فهو خاذل وخذلة كهمزة ، وخذول للمبالغة .

(٢) وقال القرطبى : هو أمية بن خلف .

و (ال) فى الرسول للجنس فيعم كل رسول ،أو المعهود :فيكون المراد بهرسول هذه الأُمة محمدا ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ .

٢٨ ـ (يَاوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً) :

ينادى الظالم فى موقفه اليائس الحزين : ويْلَتهُ ـ أى ـ : هلاكه ، تعبيرا عن حزنه وحسرته ، وهى كلمة تقال عند وقوع الداهية العظيمة ،والخطب الجسيم ، فكأَنه يقول : احضرى يا هلكتى فهذا أوانك ،ثم يقول : (لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً): ليُبْرز بهذا التمنى ندمه ، مع نوع من التعلل والاعتذار بإلصاق جنايته على نفسه بغيره ، الذى عَبَّر عنه بفلان مريداً به الشيطان ،أو كل من أَضله فى الدنيا ،أى : ليتنى لم أَتَّخذ فى الدنيا كائنا من كان صديقاً أَتَّبعه وأثق به ، وأَسلك سبيله ؛ سبيل الكفر والطغيان التى قادتنى إلى مهاوى الهلاك والخسران .

٢٩ ـ (لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً): تعليل لتمنيه السابق ، وتوضيح لتعلله ، وتصديره بلام القسم ؛ للمبالغة فى بيان خطئه ، وإظهار حسرته وندمه ،لأَنه استمع إليه فى إضلاله عن الحق الذى جاءه به رسوله .

أَى :والله لقد أَضلنى من اتخذته فى الدنيا خليلا ؛ عن القرآن والإِيمان به ، بعد إذ جاءنى به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً) : أَى أَنه مبالغ فى خذلان الإِنسان ،حيث يُواليه حتى يؤَدى به إلى الهلاك ،بما يزيِّن له من سوءِ وقبح ، ثم يتركِ نصرته ومعاونته ودفع الضرر عنه وقت الحاجة إليه ، وقد كان هذا الإِنسان يظن فيه الظهير والنصير .

وجملة « وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولًا » مقررة لمضمون ما قبلها ، إما من جهته تعالى ، وتمام الكلام على هذا عند قوله : « بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى » وإما من تمام كلام الظالم ،على أنه

سمى خليله شيطانا بعد وصفه بالإضلال الذى هو أخص أوصاف الشيطانية ، فيشمل كل مضل صد عن سبيل الله وكان مُطاعا فى المعصية أو أراد به إبليس بخاصة ،ووصفه بالخذلان يشعر بأنه كان يَعِده فى الدنيا ،ويُمنِّيه بأن ينصره فى الآخرة ،ويؤازره ،ثم تبرأ منه ،وتخلى عنه عند نزول العذاب ،وحلول البلاء ،كما قال تعالى : « وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا أَنفُسَكُمْ » [(١)] .

(وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾)

المفـردات :

(اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآن مَهْجُوراً) : أى متروكا فلم يؤمنوا به ، من الْهَجْرِ ــ بفتح الهاءــأو :مهجورا فيه ، من الهُجر ــ بضم الهاء ــ وهو :الهذيان ،وفحش القول ،كقولهم : إنه أساطير الأولين اكتتبها ، أو :بالسخرية واللغو حين يقرأ حتى لا يسمع ، والفعل من باب قتل . (عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ) : أى عدوا واحدا أو متعددا . فهو يقع على الواحد والجمع مذكرا ومؤنثا .

---

(١) سورة إبراهيم ، من الآية : ٢٢

التفسير

٣٠ - (وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) :

هذا القول معطوف على قوله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا » وما بينهما اعتراض مسوق لاستعظام ما قالوه ، وبيان ما يحيق بهم فى الآخرة من أهوال شداد ، ويجوز أن يكون استئنافًا يحكى شكوى النبى لربه من قومه ، أى : وقال الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - : يبث شكواه من قومه لربه - عز وجل - إثر ما شاهده منهم من الترك ، والإهمال ، حيث اتخذوا هذا القرآن متروكا ، ومن جملته الآيات الناطقة بتحذيرهم ، بما يصْلَونه على صنيعهم من فنون العقاب ، والنكال فى الآخرة .

أو اتخذوه مهجورًا فيه ؛ بمعنى : أنهم قالوا عنه غير الحق ، فوصفوه بأنه سحر ، أو شعر أو أساطير الأولين اكتتبها ، أو مضوا فى الهذيان واللغو فيه إذا قرئ حتى لا يسمع ، كما قال تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ »[1] . وقد تسبب هذا فى أنهم لم يؤمنوا به ، ولم يرفعوا له رأسا ، ولم يتأثروا بوعيده .

وفى الآية تلويح بأن من واجب المؤمن أن يكون كثير الرعاية للقرآن الكريم والاهتمام بتعهده ، والذود عنه ، كما أن فيها من التحذير والوعيد ما لا يخفى ، فإن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - إذا شكوا إلى ربهم ظلم قومهم عاقبهم على ظلمهم .

٣١ - (وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) :

تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - بما وقع للأنبياء والمرسلين قبله حتى يهون عليه ما يلقاه منهم من عداوة وإجرام .

أى : وكما جعلنا لك أعداء من المشركين يقولون ما يقولون ، ويفعلون ما يفعلون كأبى جهل وأحزابه ، جعلنا لكل نبى من الأنبياء أصحاب الشرائع الداعين إليها أعداء من مرتكبى الآثام ، ومقترفى الجرائم ، كما قال تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا

(١) سورة فصلت ، الآية : ٢٦ .

شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا »[١] فاصبر أيها النبى على أباطيلهم ، كما صبر الأنبياء قبلك على ضلال المجرمين من أقوامهم .

(وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا) : وعد كريم لرسوله – صلى الله عليه وسلم – بهدايته إلى بلوغ كافة مطالبه التى تُيسِّر له النصر على أعدائه ، أى : وحسبك أن تلقى تأييد ربك الذى هو مالك أمرك . وأن تظفر بهدايته إياك إلى ما يصلح شأنك ، ويحقق نصرك على أعدائك ، لتبلغ غاية الكمال ، وتصل إلى أسمى الغايات التى من جملتها تبليغ ما أنزل إليك ، وإجراء أحكامه فى ربوع الدنيا ، وبين جنباتها إلى أن يبلغ الكتاب أجله .

وقيل : المعنى وحسبك أن يكون ربك هاديًا لمن آمن بك ، واتبع الكتاب الذى أنزل عليك ، ونصيرًا لك على غير هؤلاء المؤمنين .

(وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾)

المفردات :

(لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) : أى لنجعل له الثبات والاستقرار بسببه .

(وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) : أى فرقناه آية بعد آية ، يقال : رتله القارئ : تمهل فى قراءته ولم يَعْجل به .

(وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) : أى بيانًا ، تقول : فَسَرْتُ الشىء – بفتح السين مُخَفَّفَةً – فَسْرًا من باب ضرب ، بمعنى بينته وأوضحته ، كفَسَّرته – بشد السِّين – .

(١) الأنعام ، من الآية : ١١٢

(أُولَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا) :أى ذوو سُوءٍ وظلم وفساد أكثر من غيرهم ،وأصله :أَشَرٌّ ،حذفت الهمزة لكثرة الاستعمال ، وفعله : من باب تَعِب ، وفى لغة من باب قَرُب .

التفســير

٣٢ـ (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ . . .) الآية .

يخبر الله بذلك عن تعنت الكافرين ، وتمسكهم بما لا يعنيهم ،سواءٌ أكان ذلك المعترض كفار قريش ؛كما قال ابن عباس ، أم طائفة من اليهود قالوا حين نزل القرآن مفرقًا : هَلَّا أُنْزِل عليه جملة واحدة ؛كما أُنْزِلت التوراة على موسى ،والإنجيل على عيسى ،والزبور على داود ؟ فأجاب الله تعالى أُولئك القائلين بقوله تعالى : (كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ) ؛ فهو استئناف لردّ مقالتهم الباطلة ،وبيان الحكمة فى تنزيله التدريجى ،أى :مثل ذلك التنزيل المفرّق الذى قَدحوا فيه ؛واقترحوا خلافه ؛نزلناه عليك ، لا تنزيلًا كما أرادوه ، ليقوى بذلك التنزيل المفرق فؤادك ، فتعيه ويتيسر لك حفظ لفظه ، وفهم معانيه ، وضبط أحكامه ، والوقوف على تفاصيل ما روعى فيه ، مما يحتاج إلى توضيح وبيان ،كالتشريعات والمصالح ؛ أوإلى دحض مطاعن الكافرين وإبطالها بعد حكايتها وعرضها ،فى حين أنك رجل أُمى ، وتفريقه هو المناسب لحالك .

فكلما جَدَّ جديد نزل منه ما يناسبه ،وبُيِّن فيه من الحُكم مايوافقه ، مطابقًا لمقتضى الحال .

لكل هذا ، أنزل الله القرآن منجما على النبى الأُمى ـ صلى الله عليه وسلم ـ رعايةً له وعناية به ،وإشفاقًا عليه حتى لا يلحقه مشقة فى حفظه وتدبره وتبليغه ، وليستمر الإيناس له برسول ربه جبريل ـ عليه السلام ـ (وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) : أى فرّقناه آية بعد آية ، قاله النخعى والحسن وقتادة ، وقيل : بيّناه بيانًا تامًا ؛ فيه تَرَسُّلٌ وتَثَبُّت. كما قال ابن عباس : يعنى بيناه شيئًا بعد شىء ، وقيل : قرأناه عليك بلسان جبريل ـ عليه السلام ـ شيئًا فشيئًا على تُؤَدة كما قال تعالى : « وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا »[1] .

(١) سورة الإسراء، الآية : ١٠٦

٣٣ـ (وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) :

المراد بالمثَل : أقوالهم التى يلتمسون بها معارضة القرآن والقدح فى نبوته ـصلى الله عليه وسلم ـومن جملة هذه الأقوال ما حكى عنهم من اقتراحات خارجة عن حد المعقول ، جارية لغرابتها مجرى الأمثال كقولهم : « لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا . أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا . أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا . أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ[1] . . . »

والمعنى : ولا يأتونك بكلام عجيب هو مثل فى البطلان (إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِالْحَقِّ) : أى بالجواب الثابت الذى لا محيد عنه فى مقابلة ما يصدر عنهم ، محوًا لأباطيلهم ، وقضاءً على أكاذيبهم التى أرادوا بها الطعن فى رسالتك وحسْمًا لمادة القيل والقال التى دارت على ألسنتهم ، قال النحاس : وكان ذلك من علامات النبوة لأنهم لا يسألون عن شىء إلا أجيبوا عنه . اهـ

(وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا) : أىجئناك بالحق ، وبما هو أحسن بيانا ، وتفصيلا لما بعثناك به من الهدى ، حتى لايكون للباطل الذى جاءوا به حقيقة ولا ظل ، كما قال تعالى : « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »[2] .

٣٤ـ (الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ) :

إخبار من الله تعالى عن حال الكفار فى معادهم يوم القيامة ، وحشرهم إلى جهنم فى أسوإ حال .

والمعنى : أن هؤلاء المكذبين تسحبهم الملائكة وتجرهم على وجوههم إلى جهنم ، وقيل : الحشر على الوجوه مجاز عن الذلة والمهانة والخزى ، وعقب ذلك بقوله تعالى : (أُولَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا) أولئك الذين يزعمون أنك كاذب فيما دعوتهم إليه ، واقترحوا فى تحديك ما اقترحوا ، أولئك أسوأ مكانا فى الكذب وسوء الحال ، وأضل سبيلا ، من كل ضال وهذا الأسلوب على سبيل مجاراتهم فيما زعموا فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ منزه عن كل شر وضلال .

(١) سورة الإسراء ، الآيات : من ٩٠ : ٩٣ (٢) سورة الإسراء : آية ، ٨١

(وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ
وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ
تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ
لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟
وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ
ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ
أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ
نُشُورًا ﴿٤٠﴾)

المفـردات :

(هَٰرُونَ وَزِيرًا) : أى معاونا ومساعدا له فى حمل أعباء الدعوة .

(فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) : أى أهلكناهم إهلاكا مدمرا .

(لِلنَّاسِ آيَةً): علامة ظاهرة على قدرتنا يعتبر بها .

(وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ) : أى أعددنا وهيأْنا لهم .

(وَأَصْحَابَ الرَّسِّ) : الرسُّ ؛ بئر غير مبنيّة كانت لبقية من ثمود .

(وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ) : القرن؛ الجيل من الناس ، قيل : ثمانون سنة ، وقيل : غير ذلك .

(وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ) : هى سدوم أعظم قرى قوم لوط

(مَطَرَ السَّوْءِ) : فقد أمطرت القرية بالحجارة من السماء فهلكت ، والسَّوء - بالفتح - مصدر (ساءه) وبالضم : اسم منه .

التفسير

٣٥ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) :

شروع فى بيان قصص بعض الأنبياء مع أممهم ، وانتقام الله ممن كذبهم ، تهديداً لِمَنْ كذب رسوله - صلى الله عليه وسلم - من مشركى قريش وكل من خالفه وأعرض عن دعوته ؛ وتحذيرًا لهم مما أحله بالأمم السابقة التي كذبت رُسُلها ، وتأكيدًا لما مرَّ من التسلية له - صلى الله عليه وسلم - والوعد بالهداية والنصر ، فى قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا » . وقد بدأ سبحانه بحكاية ما جرى لموسى - عليه السلام - فبَين أنه ابتعثه مؤيدًا بالتوراة التى أنزلها عليه ، وجعل معه (أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا) :أى بعثه معه يؤيده ويشد أزره ، وهو تابع له ، كما يتبع الوزير سلطانه .

وبدأ الحديث معه باللام وقد؛ لإفادة التأكيد ، أى : ولقد أنزلنا التوراة على موسى - عليه السلام - وأيدناه بأخيه هارون .

٣٦ - (فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) :

المراد بالقوم هنا : قوم فرعون ، أى : فقلنا لهما : اذهبا إلى قوم فرعون؛ الذين كذبوا بدلائل التوحيد المودعة فى الأنفس والآفاق ، أو كذبوا بالآيات التى جاءهم بها يوسف عليه السلام ، أما حَمْلُ التكذيب على أنه بالآيات التسع؛ التى ذكرت فى قوله تعالى: « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ »[1] فإنه لا يناسب المقام؛ لأنها لم تظهر إلا بعد

(١) سورة الإسراء ، من الآية ١٠١

ذهابهما إليهم ، وفى الكلام طَيٌّ لكلام يقتَضيه المقام ، تقديرُه : فقلنا اذهبا إلى القوم فذهبا إليهم ، ودَعوَاهم إلى الإيمان فكذبوهما .

واستمروا على تكذيبهما بعد أن أيدهما الله بآياته (فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا) : عجيبًا هائلًا إثر ذلك التكذيب المستمر ــ دمرناهم ــ بعذاب ماحق ، لا يدع ولا يذر شيئًا إلَّا أتى عليه وجعله أثرًا بعد عَيْن .

٣٧ ــ (وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً . . .) الآية .

أى : أن قوم نوح كذبوا جميع الرسل بتكذيبهم رسولهم إذ لا فرق بين رسول ورسول ؛ لاتفاقهم جميعًا على التوحيد وأصول الشرائع ، إذ لم يرسل إليهم إلَّا نوح ــ عليه السلام ــ وقدْ لبث فيهم ألف سنة إلَّا خمسين عامًا ، يدعوهم إلى الله ، ويحذرهم عذابه ، فما آمن معه إلَّا قليل ، وقد عاقبهم الله عقوبة لم يسبق لها مثيل ، حكاها الله بقوله : (أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً) أى:أغرقناهم بالطوفان؛ الذى تفجرت مياهه ، وتلاحقت أمواجه عالية شامخة كالجبال العظيمة ، وجعلنا إغراقهم أوقصتهم علامة ناطقة ببالغ قدرتنا ؛ لتكون عبرة لكل من شاهدآثارها ، أو سمعها (وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا) : المراد بالظالمين الذين أعدّ الله لهم العذاب هم أولئك القوم الموصوفون بالتكذيب من قومه ، أو جميع الظالمين من الكافرين الذين لم يعتبروا بما نزل بهؤلاء من العذاب فيدخل فيهم قريش دخولًا أوليًا أى : وأعددنا للظالمين وهيأنا لهم فى الآخرة عذابًا بلغ أقصى غاية فى هوله وتأثيره .

٣٨ ــ (وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا) :

أى : ودمرنا عادًا قوم هود ــ عليه السلام ــ وثمود قوم صالح ــ عليه السلام ــ وأصحاب الرّس ؛ وهم قوم شعيب ــ عليه السلام ــ ويقال لهم أيضًا : أصحاب الأيكة ، وكانوا يعبدون الأصنام ، فكذبوا شعيبًا وآذوه ، فبينما هم حول الرّس خُسِف بهم وبديارهم فهلكوا جميعًا ، وكانت بإنطاكية الشام كما نقله القرطبى .

وقال،وهْب والكلبى وقتادة : أصحابُ الرّس ، وأصحاب الأيكة[1] :قومان.أرسل إليهما

(١) وهى غيضة تنبت الشجر .

شعيب - عليه السلام - وكان أصحاب الرسّ قومًا من عبدة الأصنام ، وأصحاب آبار ومواش ، فدعاهم إلى التوحيد ، فتمادوا فى طغيانهم ، وفى إيذائه ، فبينما هم حول الرسّ - كما روى عن أبى عبيدة - انهارت بهم وبديارهم ، فهلكوا ، وقيل : هم قوم قتلوا نبيهم ورسُّوه فى بئرهم أى : دسّوه فيها ، وقيل غير ذلك .

(وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا) : أى ودمرنا كذلك أهل قرون جاءوا بين قوم نوح وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرسّ ، وكان عددهم كثيرًا لايعلم مقداره إلّا العليم الخبير ، أُرسل إليهم رسُل فكذبوهم فأُهلكوا .

والقرون : جمع قرن ومقداره سبعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل : مائة ، ويطلق مجازا على القوم المتعاصرين ، وقال الزجاج : الذى عندى - والله أعلم - أن القرن أهل كل مدة كان فيها نبىّ ، أو طبقة من أهل العلم قلّت السنون أو كثُرت .

٣٩ - (وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا) :

أى وكلّ قوم من المكذبين ذكّرنا وحذرنا ، حيث بيّنّا لهم القصص العجيبة الزاجرة لما هم عليه من الكفر والمعاصى ، ووضحنا لهم الأدلة الصحيحة الهادية ، ولكنهم كذبوا وأعرضوا فاستحقوا الدمار ، والهلاك ، كما قال تعالى : (وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا) : أى وكل قوم منهم أهلكناه هلاكًا ماحقًا ؛ لتماديه فيما هو عليه من إفك وطغيان .

٤٠ - (وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ..) الآية .

استئناف مسوق لبيان مشاهدة المشركين من أهل مكة لآثار الأمم المُهْلكة وعدم اتعاظهم بها وصُدِّر بالقسم لتأكيده وتقرير مضمونه ، والمراد بالقرية الجنس الشامل لجميع قرى قوم لوط ، يعنى أن قريشًا مروا بها كثيرًا فى أسفارهم بمتاجرهم إلى الشام ، وكانت هذه القرى قد أمطرها الله بالحجارة من السماء ، فأُهلكت كما قال تعالى : « وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ »[1] . وكانت قراهم خمسًا ، وروى عن ابن عباس أن واحدة منها نجت لكون أهلها لايعملون العمل الخبيث . والله أعلم بصحة هذا الخبر .

(١) سورة الشعراء ، الآية : ١٧٣

(أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا) : توبيخ لهم على ترك التذكر ، والتأمل عند رؤية مايوجبهما ، ويدعو إليهما .

أى : أعموا عنها فلم يكونوا يرونها فى مرورهم المتكرر عليها ، ليتعظوا بما كانوا يشاهدونه من آثار العذاب ، ودلائل النكال ؛ الذى حلَّ بأهلها فأهلكهم ، ودمرها تدميرًا؟ فالمنكر عدم الرؤية الداعية إلى التفكر والعبرة ،مع وقوع النظر الموجب لذلك (بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا) : إضراب انتقالى من التوبيخ على ماهو أعظم وأقبح ، وهو إنكارهم البعث المستتبع للجزاء الأُخروى ، إنكارًا مبالغًا فيه بحيث لا يتوقعونه أصلًا ، فمعنى «لا يرجون» على ذلك : لا يتوقعون .

(وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾)

المفردات :

(إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا) : أى ، ما يتخذونك إلَّا موضع هزء وسخرية ، يقال : هزأ منه ، وبه ، كسمع و منع :هزءًا ـ بضم الهاء مع سكون الزاى أو ضمها ـ سَخِر واستهزأ .

(إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا) : أى إنه قرب أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا .

(لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا) : حبسنا أنفسنا على عبادتها .

(مَنِ اتَّخَذَ إِلَـٰهَهُ هَوَاهُ) : أى صيَّر ميله المذموم كأنه إلٰهه الذى يتبعه ، والهوى : ميل النفس إلى الشىء ، ثم استعمل فى الميل المذموم ، وهو مصدر هَوِىَ ، كفرِح .

(وَكِيلًا) : أى حفيظًا ، يقال : وكلت الأمر إليه وَكْلًا ، ووُكولًا : فوضته إليه ، وفعله من باب وعد يَعِد .

التفسير

٤١ – (وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) :

روى أن الآية نزلت فى أبى جهل ومن معه من زعماء مشركى قريش ؛ أى أن هؤلاء إذا رأوك ما يتخذونك إلَّا مهزوءًا بك[1] أو موضع سخرية واستهزاء ، بمعنى : أنهم يقصرون فعلهم معه – عليه الصلاة والسلام – على ذلك ، قائلين على سبيل التنقص ، والازدراء : (أَهَـٰذَا الَّذِى بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا) : أى أهٰذا الذى بعثه الله مرسلًا إلينا ؟.

والتعبير باسم الإشارة بعد الاستفهام ، يريدون به الاستخفاف بدعواه أنه رسول بعثه الله إليهم ؛ والتعجب منه ، والآية فى معنى قوله تعالى : « وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ »[2] .

٤٢ – (إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا . . .) الآية .

أى : قال هؤلاء المشركون : إنه – صلى الله عليه وسلم – قارب أن يَثْنيهم عن عبادة أصنامهم ويبعدهم عنها ، لا عن عبادتها فقط ؛ لولا أنهم تجلَّدوا ، وحبسوا أنفسهم على عبادتها ، وهذا اعتراف منهم بأنه – عليه الصلاة والسلام – قد بلغ غاية الاجتهاد فى الدعوة إلى التوحيد ، وإقامة الحجج البينات التى تنير سبيل الهدى والرشاد ، حتى شارفوا أن يتركوا دينهم إلى دين الإسلام ؛ لولا فرط إصرارهم ، وغاية عنادهم ، ولهذا لجئوا إلى سلاح الاستهزاء ، حتى يحولوا دون تأثر نفوسهم على رغم منهم بدعوته .

---

(١) تنفرد (إذا) بوقوع جوابها المنفى بإن أو ما أو لا – تنفرد بوقوع جوابها هذا – غير مقترن بالفاء بخلاف غيرها من أدوات الشرط ، نقله أبو حيان وغيره .

(٢) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٦

(وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا) :جواب من جهته تعالى عن قولهم : « إن كَادَ لَيُضِلُّنَا » وردٌّ لما ينبىء عنه ، ويشير إليه من نسْبته – عليه الصلاة والسلام – إلى الضلال فى ضمن إضلاله إياهم .

أى : وسوف يعلمون البتة ؛ حين يرون العذاب يوم القيامة على كفرهم ، وعنادهم ، من هو الضال ، ومن هو المهتدى ، وأنهم قد باعوا أخراهم بدنياهم .

وفى الآية تنبيه ؛ على أنه تعالى إن أمهلهم فإنه لا يهملهم .

٤٣ – (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) :

تعجيب لرسوله – صلى الله عليه وسلم – من شناعة تمسك أولئك المشركين بشركهم ، وإصرارهم عليه ؛ بعد حكاية قبائحهم من الأقوال والأفعال ،التى باءوا بإثمها ، وبيان ماينتظرهم من سوء المصير ، وتنبيه على أن ذلك من الغرابة ؛ بحيث يجب أن يرى ويتعجب منه[1]

أى : أرأيت منْ جعل هواه إلٰها لنفسه ، بأن أطاعه فيما يأتى ويذر ، وبنى عليه أمر دينه ، مُعرضًا عن البرهان الساطع ، والحجة القاطعة ، فهو لا يرى معبودًا إلَّا هواه؟ والمعنى : انظر إليه وتعجب منه .

(أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) : استبعاد لكونه – صلى الله عليه وسلم – حفيظًا على من اتبع هواه ، يحفظه من متابعة هواه ، ويرده عن عبادة ما يهواه ؛ أى : ليست ضلالته وهداه موكولتين إلى مشيئتك لترده إلى الإيمان ، وتحفظه من الفساد ، وإنما الذى وُكل إليك هو الإنذار ، والتبليغ وقد فعلت .

٤٤ – (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ . . .) الآية .

انتقال من إنكار الله عليهم أنهم اتخذوا الهوى إلٰههم ، إلى بيان أنه لا سبيل إلى ظنه – صلى الله عليه وسلم – أنهم يسمعون ، أو يعقلون ما يقول .

---

(١) وقدم المفعول الثانى وهو إلهه على الأول وهو هواه للاعتناء به من حيث إنه هو الذى يدور عليه أمر التعجيب .

والمعنى : بل أتظن - أيها الرسول - أن أكثرهم يسمعون ما تتلو عليهم من الآيات؟ أو يعقلون ما تشير إليه تلك الآيات من الزجر عن القبائح ، والدعوة إلى المحاسن ، فتهتم بشأنهم ، وتطمع فى إيمانهم ؟

(إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ) : جملة مستأنفة لتأكيد انصرافهم عن الحق ، وبعدهم عن الاستماع والتعقل فهم فى عدم الانتفاع بما يقرع آذانهم من قوارع الآيات وزواجرها ، وانصرافهم إلى الأكل والشرب - هم فى ذلك - كالبهائم التى هى مثل فى الغفلة والضلالة (بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا) : أى بل هم أشد ضلالة من الأنعام لما أنها تطيع من يطعمها ، وتعرف من يحسن إليها ممن يقسو عليها وتطلب ما ينفعها ، وتجتنب ما يضرها ، وتهتدى لمأكلها ومشربها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم الذى خلقهم ورزقهم ، ولا يعرفون إحسانه إليهم من إساءة الشيطان الذى هو عدوهم ، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع ، ولا يتقون العقاب الذى هو شر المضار ، ولا يهتدون للحق الذى هو المورد العذب ، فهم لذلك كله معطِّلون لقواهم العقلية ، مضيعون للفطرة الأصلية التى فطر الله الناس عليها ، بالغون بما صنعوا درجةً جعلت الأنعام خيرًا منهم حيث لا تقصير منها فى طلب ما يصلحها ، وإنما ذكر الأكثر لأنَّ منهم من لم يصده عن الإسلام إلَّا حب الزياسة ، ومنهم من أسلم .

(أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾)

المفـردات :

(كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ) : أى كيف جعله ممتدًا مبسوطًا .

(لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : أى لصيَّره ظلاًّ ثابتًا دائمًا على حاله .

(ثُمَّ قَبَضْنَاهُ) : أي أزلنا ومحونا ما أنشأناه ممتدًا .

(قَبْضًا يَسِيرًا) : سهلًا .

التفسير

٤٥ - (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا) :

شروع فى بيان الأدلة الناطقة بوجوده تعالى ، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة إثر بيان جهالة المعرضين عنها وقبح ضلالتهم ،والخطاب لكل متأمل فى عجائب الكون ، والهمزة للتقرير ،والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - لتشريفه ، وللإيذان بأن ما يعقبه من آثار ربوبيته تعالى ورحمته .

ويقول الزمخشرى فى تفسير هذه الآية :

ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته ؟ ومعنى (مدَّ الظِّلَّ) :جعله يمتد وينبسط ، فينتفع به الناس ، (وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : أى لاصقًا بأصل كل مُظِل من جبل وبناء وشجر غير منبسط ، فلم ينتفع به أحد ، سمى انبساط الظل وامتداده تحركًا منه ، وعدم ذلك سكونًا . اهـ .

والمقصود : تنبيه الناس إلى عظيم قدرته ، وبالغ حكمته فيما يشاهدونه من مَدِّ الظل وقبضه ، وقال ابن عباس ، وابن عمر ، والحسن ومجاهد وغيرهم : المراد بالظل : ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، قالوا : ويدل على ذلك كون هذا الوقت لا يوجد أطيب منه ، فإن فيه يجد المريض والمسافر وكل ذى حاجة راحته واستقراره ، وأن الظلمة الخالصة تنفر منها الطباع ، وشعاع الشمس يجعل الجو ساخنًا ، والبصر كليلًا ، ولهذا كان ظلّ الجنة ممدودًا ، كما فى قوله تعالى : (وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ)[1] .

وجملة (وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا) : اعتراضية للدلالة من أول الأمر على أنه لا مدخل للأسباب العادية فيه ، أى : ولو شاء - سبحانه - لجعله ظلاً دائمًا لا يزول ، بألَّا يدع للشمس

(١) سورة الواقعة ، الآية : ٣٠

سبيلًا إليه (ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا)[١] : أى جعلناها علامة يستدل بها وبأحوالها فى مسيرها على أحوال الظل من كونه يحدث فى مكان ، ويزول من آخر ، ويتسع ويتقلص كذلك ، فيبنون حاجتهم إلى الظل واستغناءهم عنه على حسب ذلك .

وقبضُه إياه : أنه ينسخه بضِحِّ الشمس[٢] انظر الزمخشرى .

وقال قتادة والسُّدى : المعنى ؛ جعلنا الشمس دليلًا عليه ، تتلوه وتتبعه حتى تأتى عليه كله .

٤٦ ـ (ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا) :

أى : ثم أخذنا ذلك الظل الممدود إلى حيث أردنا ، ومحوناه بمحض قدرتنا عند إيقاع شعاع الشمس على موقعه ، لايشاركنا أحد فى إزالته ، كما لم يشاركنا أحد فى إنشائه ، فهو منَّاوإلينا ، وكان قبضه إلينا يسيرًا علينا غير عسير ؛ حيث قبضناه جزءًا جزءًا وفق موضع الأرض من الشمس التى تأتى عليه ، وقال الضحاك : قبضًا سريعًا .

ويحتمل أن يكون قبضه عند قيام الساعة بقرينة إلينا ، وذلك بقبض أسبابه وهى الأجرام التى تُلقِى الظل ، كما أن إنشاءه كان بإنشاء أسبابه ، والتعبير بالماضى لتحققه ، والإتيان بثم فى هذه الآية والتى سبقتها للتراخى الزمنى بين المعطوف والمعطوف عليه .

---

(١) هذه الآية تظهر عناية الخالق وقدرته ؛ فد الظل يدل على دوران الأرض وعلى ميل محور دورانها ، ولو أن الأرض سكنت بحيث إنها ظلت غير متحركة حول الشمس ، وانعدم دورانها حول محورها لسكن الظل ، ولظلت أشعة الشمس مسلطة على نصف الأرض ، بينما يظل النصف الآخر ليلا ؛ مما يحدث اختلاف التوازن الحرارى ، ويؤدى إلى انعدام الحياة على الأرض وكذلك لو أن الله خلق الأشياء كلها شفافة لما وجد الظل ولانعدمت فرص الحياة أمام الكائنات التى تحتاج إليه . اهـ . من هامش المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ، الطبعة السابعة للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

(٢) الضِّح ـ بالكسر ـ : الشمس وضوءها : القاموس .

(وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ
ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ
وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا
وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ
بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾)

المفردات :

(الَّيْلَ لِبَاسًا) : اللباس ؛ ما يلبس ، وفعله : من باب فرح .

(وَالنَّوْمَ سُبَاتًا) :السُّبات ؛ الثقيل لتكمل به الراحة ، من السبت : بمعنى القطع ، وقد يطلق السُّبات على الموت ، وفعله : من باب نَصَر ينصُر .

(النَّهَارَ نُشُورًا) : أى حياة تزاولون فيها أعمالكم ، يقال : نَشَرت الأَرْض نشورًا بمعنى حَيَّتْ وأنبتت ، وفعله كقعَد ، وضرب .

(بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ) : أى مبشرات ، جمع بَشُور كرسول ، وأصله : بُشُر - بضم الشين - ثم خفف بالإسكان .

(مَاءً طَهُورًا) : صالحًا للتطهربه ، كطاهر مع المبالغة فى طهارته ، ويقول الفقهاء : هو الطاهر فى نفسه المطهِّر لغيره ، وهو الماءُ المطلق والذى لم يختلط بِنَحْو خَلٍّ وعِطْر ، فإن خالطه مثل ذلك فليس بطهور وإنما هو طاهر. ولو كان معناهما واحدًا لقيل : ثوب طهور وخشب طهور وهو ممتنع .

(وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا) : جمع أنسى ، ككُرسِى ، أو جمع إنسان ، فقلبت النون فى الجمع ياءً وأُدغمت الياءُ فى الياء .

(وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ) : أى صرفنا المطر بين الناس فى البلدان والأَوقات المختلفة ليعلموا آيات قدرتنا ، أو بينا آيات القرآن ببيان ما فيه من عقائد وحلال وحرام .

التفسير

٤٧ - (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) :

بيان لبعض ما أسبغه الله - عز وجل - على خلقه من آثار قدرته العظيمة ، ورحمته الواسعة التى أفاضها عليهم .

أى : جعل الله لكم - أيها المخاطبون - الليل ساترًا يستركم بظلامه ، كما يستركم اللباس الذى تلبسونه ، وجعل لكم النوم العميق الذى يقع فى الليل غالبًا - جعله - قطعًا لأعمالكم التى تُثقلكم وتُضْنيكم لتستريح من متاعبها أبدانكم وأرواحكم ، (وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا) أى : تنتشرون فيه لمعايشكم ومكاسبكم ولأداء سائر أعمال الحياة ، كما قال تعالى : « وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[(1)] فهو زمان بعث باليقظة من ذلك السُّبات كبعث الموتى بالنشور ، وجُوِّز أن يراد بالسُّبات الموت ؛ لما فيه من قطع الإحساس بالحياة ، وعُبِّر به عن النوم لما بينهما من المشابهة فى انقطاع أحكام الحياة كما فى قوله تعالى : « اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا » كما عبر عن اليقظة بالنشور والبعث .

٤٨ - (وَهُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا) :

وهذا أيضًا من آثار قدرته التامة وسلطانه العظيم ، أى : أنه سبحانه يرسل الرياح مبشرات بمجىء السحاب المؤذن بإنزال المطر ، لأنه ريح فسحاب فمطر ، وَوَرد المطر بعنوان الرحمة لحاجة كل مخلوق إلى مائه ، لأن فيه رزقًا للعباد ، وبه تحيا الكائنات الحية ، (فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) .

والالتفات إلى نون العظمة فى قوله سبحانه : (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا) ، لإبراز كمال العناية بإنزال الماء بمعنى : أنزلنا بعظمتنا ورحمتنا ماء طاهرًا فى نفسه مطهرًا لغيره ، فالمياه المنزلة من السماء والمودعة فى الأرض طاهرة مطهِّرة ، ووصفه بطهور إعظامٌ للمنّة وأنه أهنأُ وأنفع مما خالطه ما يزيل هذا الوصف ، كالخل والسُّكر والمِسْك .

---

(١) سورة القصص ، آية : ٧٣ .

٤٩ - (لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) :

أى لنحيى بالمطر بلدة أماتها الجدْب والمَحْلُ حتى أصبحت أرضها هامدة لانبات فيها ولازرع ، وهو روحها يحييها الله به كما قال كعب : المطر روح الأرض يحييها الله به . ا هـ .

وإحياؤها بإنبات النبات فيها ، كما يشير إلى هذا قوله تعالى : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَآءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ »(١) .

ووصف البلدة - وهى مؤنثة ، بـ(ميتًا) وهو مذكر - على إرادة البلد أو المكان (وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَآ(٢) أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا) : أى نسقى ذلك الماء الطهور الذى يجرى فى الأنهار وفى العيون والآبار ، نسقيه أنعامًا وأناسىَّ كثيرًا ممن خلقنا .

وقُدِّم إحياء الأرض على سقى الأنعام والأناسى لأن حياتها سبب لحياتهم ، وتخصيص الأنعام من بين الحيوان الشارب لأن عامة منافع الأناس ومعايشهم منوطة بها .

وقال : (كَثِيرًا) : ولم يقل كثيرين ، لأن ما كان على وزن (فعيل) قد يراد به الكثرة نحو قوله تعالى : « وَحَسُنَ أُولَٰـٓئِكَ رَفِيقًا »(٣) .

٥٠ - (وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا) :

أى ولقد بينا وكررنا هذا القول للناس فى هذا القرآن ، وفى سائر الكتب المنزلة ، وهو إرسال الرياح وإنشاء السحاب ، وإنزال المطر ، وهو مفهوم من السياق ، وذلك ليتفكروا ويعتبروا ويعرفوا كمال قدرته تعالى ، وواسع رحمته ، فيشكروه عز وجل ، ويعلموا أنَّ مَنْ أنْعم بهذه المنن والآلاء لايجوز الإشراك به .

وقيل : الضمير للمطر ، وهذا القول مروى عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد ، وعكرمة ، بمعنى : ولقد صرفنا الماء المنزل من السماء بين الناس المتقدمين والمتأخرين فى البلدان المختلفة والأوقات المتغايرة ، وعلى الصفات المتفاوتة من وابل وطَلٍّ ورذاذ وغيرها

---

(١) سورة الحج ، آية : ٥

(٢) و(من) فى قوله : « مما خلقنا » إما بيانية - أى : ونسقيه مخلوقا لنا أو : تبعيضية ، أى : نسقيه بعض مخلوقاتنا .

(٣) سورة النساء ، من الآية : ٦٩

ينزله بأرض . ويمسكه عن أخرى حسبما يريد ويشاء ، وتلك من دلائل القدرة الباهرة التى تدعو إلى الإيمان بالله ، ومجافاة الكفر به ، ولكنهم لم يفقهوا (فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا): أى : أبى أكثرهم ممن سلف وخلف إلَّا كفر النعمة وجحدها وعدم الاكتراث بها ، بأن يقولوا : مطرنا بنَوْءِ كذا ؛ معرضين عن ذكر صنع الله ، ورحمته ، اعتقادًا منهم أن النجوم لها الفاعلية والتأثير ، وهذا – والعياذ بالله – كفر ، كما صح فى الحديث المخرج فى صحيح مسلم عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال لأصحابه يومًا على إثرِ سماء أصابتهم من الليل : « أتدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ؛ قال : « أصبح من عبادى مؤمن وكافر ، فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بِنَوءِ كذا وكذا ، فذاك كافر بى مؤمن بالكواكب » .

(وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾)

المفــردات :

(نَذِيرًا) : أى رسولًا ينذر أهلها .

(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ) : فى دعوتهم إياك إلى اتباع آلهتهم .

(جِهَادًا كَبِيرًا) : أى دائمًا مستمرًا لايخالطه فتور .

التفســير

٥١ – (وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا) :

أى رسولًا يدعوهم إلى عبادة الله – عز وجل – لتخفَّ عليك أعباءُ الرسالة ، ولكنا لم نفعل ، بل جعلناك نذيرا إلى جميع أهل الأرض ، وأمرناك أن تبلغهم هذا القرآن ، كما

قال تعالى : « قُلْ يَـٰأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا »[1] تكريما لك ورفعا لمنزلتك لتنال بجهدك المبذول أوفى الجزاء ، وأكرم المثوبة ، فقابل هذه النعمة الجليلة بالشكر والصبر على جهاد المعاندين المتكبرين بكل ما أُوتيت من قوة ، مع المبالغة فى إنكار ما يدعونك إليه كما قال تعالى :

٥٢ ـ (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) :

أى فلا تطعهم فيما يدعونك إليه من اتباع آلهتهم وهو دَفْعٌ له ـ صلى الله عايه وسلم ـ وللمؤمنين على التشدد معهم والمبالغة فى الإنكار عليهم (وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) : أى وجاهدهم بعون الله وتوفيقه ، أو بالقرآن ، كما قال ابن عباس ، وذلك بتلاوة ما فيه من الحجج والبراهين ، والقوارع والزواجر ، والمواعظ اللافتة إلى عاقبة الأُمم التى كذبت رُسُلَها لإظهار عجزهم ، وتبصيرهم بسوءِ مصيرهم ، وكأنه نُهى بهذه الآية عن الملاينة ، وقد كان المشركون يدعون الرسول إلى مهادنتهم وملاينتهم والكف عن تسفيه أحلامهم وآلهتهم ، فجاءت هذه الآية لقطع أطماعهم ، وحثه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على مجاهدتهم وملاحقتهم بالإنذار والوعيد دون فتور ، كما قال تعالى : « يَـٰأَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ »[2] .

وكان جهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ كبيرا ؛ كما أمره الله ـ عز وجل ـ فلم تلن له معهم قناة ، مع مابذلوه معه من الأمانى الفسيحة إن أطاعهم ، ولامع قسوتهم الشديدة عليه وعلى أصحابه حينما رفض عروضهم السخية .

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١٥٨

(٢) سورة التوبة ، من الآية : ٧٣

* (وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾)

المفـردات :

(مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ) : أجراهما وخلَّاهما ، من ؛ مرجت الدابة ، إذا خلَّيتها ترعى .

(الْبَحْرَيْنِ) : الماءين : العذب والمِلْح ، من غير تخصيص ببحرين معينين .

(مِلْحٌ أُجَاجٌ) : شديد الملوحة والحرافة ، من أجيج النار ، كما قال الراغب .

(بَرْزَخًا) : حاجزا يمنع أن يغلب أحدهما على الآخر كما فى قوله تعالى : « بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ » .

(حِجْرًا مَّحْجُورًا) : أى تنافرا مفرطا ، كأن كل واحد منهما ينفر من الآخر ، ويتعوذ منه بتلك المقالة على عادة العربى الذى كان إذا رأى شيئا يكرهه يقول : (حِجْرًا مَّحْجُورًا) والمراد : لزوم كل منهما لصفته من العذوبة والملوحة .

(جَعَلَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا) : المراد بالماء ؛ نطفة الرجل ونطفة المرأة .

(فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا) : أى فقسم الماء قسمين ذوى نسب ـ أى : ذكورا ـ وذوات صهر أى : إناثا ، فبالذكور يكون النسب ، وبالإناث تكون المصاهرة .

التفسير

٥٣ ، ٥٤ ـ (وَهُوَ الَّذِى مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا . وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) :

هاتان الآيتان من جملة الآيات التى بدأت بقوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ إِلَى

رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » والتى تتحدث عن بعض آيات الله الكونية التى تتعاظم فيها آلاؤه، وتتراءى آثار نعمه على خلقه ، ودلائل قدرته فى تسخير هذه المخلوقات لتذليل السبل فى حياة الإنسان ، وتيسير حاجاته مصداقا لقوله تعالى : « هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً »(١) وقوله جل شأنه : « وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ »(٢). ومعنى « مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ » : أجرى الماءين العذب والملح ، مع استقلال كل واحد منهما بخصائصه وأوصافه ، هذا عذب فرات مستساغ الطعم وقامع للعطش ، ومنبت للزرع ، وهذا ملح أجاج شديد الملوحة كريه الطعم تجرى فيه السفن ويأكل منه الناس لحما طريا ويستخرجون حلية يلبسونها وجعل بين الماءين « بَرْزَخاً وَحِجْراً مَّحْجُوراً » أى : وجعل الله تعالى بقدرته بين الملح والعذب حاجزا ومانعا لا سبيل إلى رفعه ودفعه ، حتى لا يطغى أحدهما على الآخر أو يغلب عليه ، فلا يعذب الملح بالعذب لقلة ما يتسرب منه إلى الماء الملح ، ولا يملح الماء العذب بمجاورته للماء الملح فى مصبه ، لأن الله تعالى بقدرته العظيمة ، جعل البحار الملحة فى أغوار منخفضة عن سطح الأرض وعن مجارى المياه العذبة ، بحيث لا يمتد فى مجارى الأنهار إلا جزء قليل مجاور لها فى مستواها ، وهو مصبها ، فبانخفاض البحار وعلو مستوى الأنهار ، حفظ الله طبيعة كليهما ، حتى ينتفع بالملح والعذب فيما خلقهما الله لأجله .

ويجوز أن يراد من الحجر المحجور : اليابس الذى جعله الله بين الماءين ، وحال به بينهما ، لينتفع بكليهما فى موضعه من الأرض .

(وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَراً) :

أى : ومن جملة قدرته ـ تعالى ـ أن خلق من نطفة الرجل والمرأة إنسانا بعد أن طوره فى مراحله المختلفة ، وأداره فى أدوار التكوين فجعله قسمين: ذكرا يُنْتَسَبُ إليه فيقال : فلان بن فلان ، وفلانة بنت فلان ، وأنثى يُصَاهَرُ أهلها بزواجها فيتحقق بذلك الترابط ، وتتم الصلات الطاهرة بين بنى الإنسان حتى يصيروا شعوبا وقبائل .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ٢٩

(٢) سورة الجاثية ، من الآية : ١٣

وشأن من يقدر على هذه الآيات ، ويبدع هذه المخلوقات المتعددة الأنواع والصفات أن يكون عظيم القدرة لا يعجزه إبداع شيء من حيوان أو نبات أو جماد ، فهو الذى يقول للشيء : « كُن فَيَكُونُ » .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(ظَهِيرًا) : مظاهرا ومعاونا للشيطان على عصيان الله، والكفر به ، مثل قوله تعالى : « وَالْمَلَآئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ » ، والمراد بالكافر ؛ الجنس : ، أى كل كافر .

التفسير

٥٥ ـ (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا) :

لما عددت الآيات السابقة آلاء الله ونعمه ، وأبرزت آثارها على الإنسان فى تيسير حياته ، جاءت هذه الآية تنعى على الكفار بعامة ، وعلى مشركى مكة بخاصة خفة أحلامهم وسفه عقولهم فى إعراضهم عن توحيد الله ، وإنكار ألوهيته مع عظيم آياته ، وروائع آثاره ، وتندد باتخاذهم آلهة من دون الله يصنعونها بأيديهم ، ويشترونها من أسواقهم كما تشترى البهائم والسلع ، ويشاهدون حدوثها واختلاف أحوالها ، ثم يعظمونها بعد ذلك ، ويقدمون لها القرابين من نعم الله وما أفاءه عليهم ، وهى من الضعف والهوان بحيث لاتستطيع أن تجلب لهم نفعاً ، ولا أن تدفع عنهم ضرا ، بل هى من المهانة بحيث لا تستطيع أن تجلب لنفسها نفعا ولا تدفع عنها شرًّا ، وكان الكافر بعبادته لهذه الآلهة الواهنة ظهيرا للشيطان ومعينا له على ربه ، ولن يغلب اللهَ غالبٌ .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٥٦ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٥٧ ﴾

المفردات :

(مُبَشِّرًا) : تبشر الذين اتبعوك بالخير فى الدنيا والآخرة .

(نَذِيرًا) : تنذر المكذبين المعارضين لدعوتك وتخوفهم بعذاب بالغ فى الشدة .

(سَبِيلًا) : طريقاً يسلكه إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة .

التفسير

٥٦ - (وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا) :

هذه الآية جاءت بعد الآية السابقة عليها ، ليتسلى بها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فلا تذهب نفسه حسرات على عناد قومه وإشراكهم .

والمعنى : ما عهدنا إليك بهذه الرسالة التى بعثناك بها إلى قومك ومَنْ وراءهم لتحملهم عليها قسرا ، وإنما أرسلناك مبشرًا بالسعادة والنعيم المقيم فى الجنة لمن أطاعوك ، وصدقوك واتبعوا سبيلك ، ونذيرًا بعذاب شديد متناهى الإيلام لمن خالفوك وعارضوك ، وكذّبوا دعوتك ، فلا يحزنك هؤلاء الذين يسارعون فى الكفر بغير روية ، ويستمرون عليه بعد ما قمت به من أمر التبليغ على خير وجه ، وأوضح بيان .

٥٧ - (قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلِى رَبِّه سَبِيلًا) :

أى : قل أيها الرسول واعظاً لهؤلاء المشركين ، ودافعاً عن نفسك مظنة الانتفاع : ماأسألكم على ما أدعوكم إليه من توحيده وعبادته أجرًا ، ولا أطلب منكم فى سبيل القيام بتبليغه جزاءً ، إلا اهتداء من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا ، فهذا أعظم أجر يناله الداعية إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

(وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾)

المفردات :

(تَوَكَّلْ) : اعتمد بقلبك على ربك فى الأمور .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ) : نزه ربك عن صفات النقصان حامدا له على نعمائه ، مثنيا على كمالاته .

(خَبِيرًا) : عالما بدقائق الأمور وخوافيها فضلا عن ظواهرها .

(الْعَرْشِ) : عرش الله تعالى وهو لا يحدُّ ، ويطلق لغة على سرير الملك ، وعلى العز وقوام الأمر .

(اَسْتَوَىٰ) : الاستواء : الاستيلاء

التفسير

٥٨ ـ (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا) :

أمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الآية السابقة أن يقول للمشركين :

إنه لا يطلب بدعوته إياهم أجرا ولا يطمع منهم فى نفع ، وعقبها بهذه الآية ليدعوه بها أن يجعل اعتماده على الله وحده لا يبالى بأحد غيره ولا يأبه بعناد المشركين ، ولا يطمع منهم فى عون .

والمعنى : اعتمد ـ يا رسول الله ـ على ربك بقلبك فى اتقاء شرورهم ، والاستغناء عن أجورهم

فإنه – سبحانه – جدير بالتوكل عليه ، والاستغناء به ، فهو الحيّ الباقى الذى لايدركه فناء ، ولا ينقطع منه رجاء .

(وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا) :

أى : نزهه عن صفات النقصان ، مثنياً عليه بصفات الكمال التى تليق بذاته طلباً لرحمته ، وطمعاً فى استزادة نعمه بمزيد الاعتراف بها والشكر عليها ، وكفى بالله ، وبعلمه التام خبيرا بذنوب عباده مطَّلِعًا على ماخفى منها وما ظهر لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ليجازى عليها جزاءً وفاقا .

٥٩ – (الَّذِى خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا .....) الآية .

تضمنت هذه الآية وصفه–تعالى–بصفته الفعلية ، بعد وصفه بصفاته الذاتية ، إبرازًا لكمال قدرته على استجابة من توكل عليه ولجأ إليه ، فإن من يقدر على إنشاء هذه الأجرام العظام على هذا النمط الرائق ، والنسق الفائق فى تدبير متين ، وترتيب رصين أحق أنْ يتوكل عليه ، ويفوض الأمر إليه .

والمراد بالعرش فى قوله تعالى : « ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ » : الملك والسلطان ، وبالاستواء عليه : تدبيره لما خلقه دون شريك .

والمعنى : ثم أحكم سلطانه وتدبيره لما خلقه من السموات والأرض وما بينهما ، دون شريك ولا معين وبهذا أول الخَلَفُ الآية الكريمة ، لأنه تعالى لا يحل بمكان ولأنه موجود قبل أن يخلق العرش ، وعن الصادق والحسن وأبى حنيفة ومالك – رضى الله عنهم – : أن الاستواء معلوم والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والجحود له كفر ، والسؤال عنه بدعة[1] .

والمراد بالأيام فى قوله تعالى : « فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » غير الأيام المعروفة لنا ، فإن الليل والنهار لم يكونا قبل خلق السموات والأرض ، فهى من أيام الله ، يعلم الله قدرها ، ولا مجال للحديث عنها ، فقد يكون اليوم أكثر من خمسين ألف سنة مما يعدون .

(١) تقدم الكلام مستوفى على معنى قوله تعالى : « ثم استوى على العرش » فى سورة الأعراف .

ومهما يكن فإن قدرة الله لا يعجزها خلق السموات والأرض. فى أى زمان كان طويلا أو قصيرا ، وهو الذى يقول للشىء :كن فيكون ، وإنما جاء هذا التحديد لحكم جليلة ، وغايات جميلة ، ولتكون الرّوية والأناة منهج القادرين، وأسلوب العاملين ، وسبحان من لا تحيط العقول بحكمته ، ولا تدرك أسرار صنعته .

وقوله تعالى : « الرَّحْمَٰنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » جملة مستأنفة ، تقديرها : هو الرحمن ، سيقت مساق المدح لتقرير رحمته التى وسعت كل شىء بعد ما ثبت له من الصفات السابقة تأكيدا لوجوب التوكل عليه .

« فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » الأمر موجه إلى كل مكلف أى : فاسأل بالرحمن خبيرا - والمراد بالسؤال به تعالى : السؤال عن تفصيل رحمته وشئونه فى خلقه ، والخبير : هو رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

والمعنى الإجمالى للآية : الذى خلق السموات والأرض بأجزائهما وما استقر فيهما ، وخلق الكواكب التى زيّن بها سماواته ، وخلق ما بين السماء والأرض من الهواء والأشعة الكونية وما يعلمه الناس ومالا يعلمونه فاسأل عن الرحمن الذى أبدع هذا الكون العظيم ، وشمل من فيه برحمته - اسأل عنه أيها المكلف رسوله محمدا - صلى الله عليه وسلم - فهو وحده الخبير الذى يعلم شئون ربه فى خلقه ، وهو وحده الذى يجيبك بحق ،وصدق ، فإنه « لَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ » فما يقوله عنه فهو حق ، وما يخالفه فهو مردود على قائله .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾ ۩)

المفردات :

(نُفُورًا) : تباعدا عن الإيمان ، وإصرارا على الكفر .

التفسير

٦٠ - (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) :

ذكرت الآية السابقة إطلاق وصف الرحمن على الله تعالى ، وجاءت هذه الآية بعدها تنعى على المشركين جحودهم لهذا الاسم ، وإصرارهم على الكفر به ، ونفورهم من أمرهم بالسجود له .

والمعنى : وإذا قال لهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - : اسجدوا للرحمن تبليغا عن ربه قالوا على سبيل التعجب، أو السخرية والتجاهل أو الإنكار : وما الرحمن؟ قالوا ذلك لما أنهم كانوا لا يطلقون هذا الاسم على الله تعالى . ومعنى قولهم وما الرحمن ؟ : وما هذا الاسم الذى تسمى به الله ولا نعرفه ؟ .

(أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا) : أى لا نسجد للذى تأمرنا بالسجود له وتسميه الرحمن فنحن لا نعرفه ، ولا نُقِرُّ به ، ولا نطيع لك فيه أمرا ، وزادهم الأمر بالسجود نفورا عن الإيمان وإصرارا على الكفر .

وكان سفيان الثورى يقول فى هذه الآية : « إلهى : زادنى لك خضوعًا ، مازاد أعداءَك نفورا » .

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ ﴾

المفردات :

(بُرُوجًا): منازل للشمس والقمر ، وهى المنازل الاثنا عشر [1] ، مفردها برج ، والبرج : كل مرتفع ، سميت بذلك تشبيهًا لها بالقصور العالية .

(سِرَاجًا): المراد به الشمس لقوله تعالى: « وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » وقرئ سُرُجًا بصيغة الجمع ، فيكون المراد بالشمس : الجنس الشامل لكل ما ماثل شمسنا فى المجرة التى تتبعها .

(مُنِيرًا): مضيئا ليلا ، ووصفه بمنيرا . دون مضىء يشعر بأن نوره مستمد من الشمس (خِلْفَةً) : أى يخلف كل منهما الآخر (يَذَّكَّرَ) : يتعظ ، وأصله : يتذكر ، أدغمت تاءُ الافتعال فى الذال بعد قلبها ذالا .

(شُكُورًا) : شكرا كثيرا لله تعالى على نعمه .

التفسير

٦١ - (تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا) :

هذه الآية والتى بعدها تُؤَكِّدَان تنزيه الله ، وتعظيمه ، وَتُعَدِّدَانِ آيات قدرته وبدائع صنعه واستحقاقه السجود له .

---

(١) وهى منازل الكواكب السبعة السيارة : الحمل ، والثور ، والجوزاء ، والسرطان ، والأسد ، والسنبلة ، والميزان ، والعقرب ، والقوس ، والجدى ، والدلو ، والحوت .

والمعنى : تنزه الله وتعالى واستحق كل تعظيم وتمجيد ، وكل إذعان وطاعة لما أحكم من صنعه إذ جعل فى السماء منازل اثنى عشر لنزول الشمس والكواكب ، وجعلها على أربعة أقسام : ثلاثة ربيعية ، وثلاثة صيفية ، وثلاثة خريفية ، وثلاثة شتوية ، وبهذا يختلف الزمان حرارة وبرودة ، ويختلف الليل والنهار طولا وقصرا ولا يخفى أثر ذلك فى إنبات النبات ، وإنضاج الثمار والزروع وملاءمة أحوال الناس فى أعمالهم ومهنهم ، كما جعل فى السماء شمسًا تضىء الأرض كما يضىء السراج المكان الذى يسرج فيه ، وجعل فيها قمرًا ينسخ ظلام الليل ، ويخفف من عتمته ، فيهتدى بذلك السارى ، وتقل به الوحشة ؛ قال تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » .

والضمير فى قوله تعالى : « وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا » يعود على البروج لقربها ، ويجوز أن يكون عائدا على السماء ؛ لأنها الأصل .

٦٢ ـ (وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا) :

أى : وهو الله الذى توافرت نعمه ، وتعاظم فضله ، فجعل تعاقب الليل والنهار وفاء بمتطلبات الحياة واحتياجات خلقه فى إنبات النبات ، وإنضاج الثمار والزروع وتقلبهم فى أعمالهم وأسفارهم وإخلادهم إلى الراحة ، وفى هذا غاية العبرة لمن أراد أن يعتبر بتأمله فى محكم آياته ، وجلائل تدبيره ، فيعلم أن لابد لهذا الكون من إله قادر وصانع حكيم ، كما أن فيه أوسع مجال لمن أراد أن يتعاظم حمده لربه ، ويتزايد شكره لخالقه على توافر نعمه ، وتزايد آلائه ، وقال ابن كثير : جعلهما يتعاقبان توقيتا لعبادته ، فمن فاته عمل فى الليل استدركه فى النهار ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : « إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل » .

(وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا
خَاطَبَهُمُ ٱلْجَـٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ
سُجَّدًا وَقِيَـٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ
إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾)

المفـردات :

(يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا) : أى مشيًا لينا بسكينة ووقار وتواضع .

(الْجَاهِلُونَ) : المراد بهم السفهاء .

(قَالُوا سَلَامًا) : أى قالوا للسفهاء تسليمًا منكم ، ومتاركة لكم وبُعْدًا عنكم .

(غَرَامًا) : هلاكا لازما ، وشرًّا دائمًا ، من قولهم : هو مُغْرم بكذا ، أى : يلازمه ملازمة الغريم .

(مُسْتَقَرًّا) : مكان استقرار وسكن .

(مُقَامًا) : دار إقامة ، من أقام بالمكان ؛ إذا سكنه ولزمه .

التفسير

٦٣ - (وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا) :

هذا كلام مستأنف مسوق لبيان أوصاف المؤمنين الصادقين بعد بيان أحوال المشركين الجاحدين لوحدانية الله ، النافرين من عبادته والسجود له ، وبضدها تتميز الأشياء ..

وعباد الرحمن : من العبودية التى هى إظهار التذلل والخضوع ، مع القيام بمقتضياتها من حسن الطاعة وجميل الانقياد والامتثال ، والتعبير عن المؤمنين الصادقين بلفظ :

(عباد) وإضافتهم إلى الرحمن فيه تقدير لإيمانهم ، وحسن أعمالهم وتشريف لهم ، وتبكيت للمشركين الذين أنكروا اسم الرحمن ، وأعرضوا عن السجود له ، وقوله تعالى : « يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » : معناه يسيرون فى تقلبهم لتحصيل معايشهم ، والسعى فى حاجاتهم سيرا هيّنا لينا لا بَغْى فيه ولا استعلاء ، فكلمة : (هونا) مصدر وقع وصفا لموصوف محذوف ، وقيل :المشى الهون يقابل السريع وهو مذموم؛ لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أخرجه أبو نعيم ، وابن النجار عن ابن عباس : « سرعة المشى تذهب بهاء الرجل ».

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ) : معناه إذا تكلم معهم السفهاء بالسوء أو بكلام يؤذيهم ويكرهون سماعه أعرضوا عنهم تحلما وسماحة ، وقالوا ردًّا عليهم : تسلُّما منكم ومتاركة لكم ، فليس معنى : (سَلَامًا) السلام المعروف لأن الآية فى مشركى مكة فلا سلام عليهم ، والذى يظهر من الأسلوب أن المفهوم من قولهم سلاما هو سداد الردّ مع البعد عن التفحش ومجاراة السفهاء .

وقيل معناه : إذا سفه عليهم الجاهلون بالسوء ، لم يقابلوهم بمثله بل يعفون ويصفحون ولا يقولون إلا خيرا ، كما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما ، وقوله تعالى :

٦٤ ـ (وَ الَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا) :

معطوف على قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا . . . . » الآية داخل معه فى حيز الخبر لقوله تعالى : « وَ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ » وفيه بيان لحالتهم مع ربهم ، بعد بيان سلوكهم مع السفهاء خفاف الأحلام من مداراتهم وعدم مجاراتهم ، وكان الحسن يقول : إذا قرأ الآية الأولى : هذا وصف نهارهم ، و إذا قرأ هذه الآية قال : « هذا وصف ليلهم » ويبيتون من البيتوتة ـ وهى الدخول فى الليل وإدراكه بنوم أو بدون نوم .

والمعنى : وعباد الرحمن الذين يحيون ليلهم بالصلاة قائمين ساجدين لربهم ، وتقديم السجود على القيام مع تأخره عنه فى الأداء إيماءٌ إلى شرف السجود لما فيه من غاية الخضوع وفضل التذلل ، وقد ورد : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وقد حرم منه إبليس ، وأباه المشركون ، ونفروا من أدائه . هذا فضلا عن مراعاة رءوس الآى .

٦٥ - (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ) :

معناه : والذين يتجهون إلى الله فى أعقاب صلاتهم ، وفى أوقات تهجدهم وفى جميع أحوالهم - يتجهون إلى الله بالدعاء - قائلين : يا ربنا وإلهنا الذى نلجأُ إليه فى سرائنا وضرائنا أبعد عنَّا عذاب جهنم وقنا إياه .

(إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) : هذه الجملة مقولة على لسان الداعين فيما يظهر، لتعليل دعائهم السابق بأَن يقيهم الله عذاب جهنم ، أَى : اصرف عنا عذابها ؛ لأَنه هلاك لازم وشر دائم .

٦٦ - (إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) :

تعليل ثان لدعائهم بأَن يقيهم الله عذاب جهنم ، أَى : إن جهنم قَبُحتْ وبئست دار استقرار وإقامة لمن هو فيها ، يكتوى بلظاها ، ويحترق بسعيرها ، قال الحسن : كل غريم يفارق غريمه إلا غريم جهنم .

(وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾)

المفـردات :

(يُسْرِفُوا) : يُفْرِطوا فى الإِنفاق حتى يضروا باحتياجات معيشتهم ، ومصدره : الإِسراف ، وهو التبذير فى النفقة ، والاسم منه : السَّرفُ - بفتحتين - وهو ضد القَصْد .

(يَقْتُرُوا): يُضَيِّقُوا فى النفقة على أَنفسهم وعيالهم تضييق الشحيح ، وماضيه : قَتَر ، من باب : ضرب ودخل ، ويقال : قَتَّر وأَقْتَر .

(قَوَامًا) : وسطًا وعدلًا .

التفسير

٦٧ - (وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا ....) الآية .

تناولت الآيات السابقة فى وصف عباد الرحمن أنهم مع السفهاء والجاهلين يُتَاركونهم ولا يجاهلونهم ، ومع الله تعالى يتواضعون ويشتغلون بعبادته ويشفقون من عذاب جهنم ويتعوذون منها ، ثم جاءت هذه الآية تمدحهم بالاعتدال والقصد فى شئون معاملاتهم وإنفاقهم واختلف المفسرون فى تحديد معنى الإسراف والتقتير ، فذهب جماعة إلى أن الإسراف هو الإفراط ومجاوزة الحد فى الإنفاق دُنْيا ودِيناً ، فصفة عباد الرحمن: القصد والتوسط فإذا أنفقوا من أموالهم على أنفسهم وعيالهم ، أو تصدقوا منها على الفقراء والمساكين ، أو بذلوا فى وجوه الخير ،والمصالح العامة التى تعود بالنفع على المسلمين، التزموا الاعتدال والوسط ، فلم يجاوزوا الحد ، ولم يُفْرِطوا فى الإنفاق إلى حد الإسراف لكيلا يفتقروا ويضيعوا أنفسهم وعيالهم ، ولم يبالغوا فى التقتير والتضييق ، ولم يبلغوا درجة البخل والشح

بين تبذير وبخل رتبة　　　وكلا الحالين إن عام قتل

وذلك هو القوام ، وهو ما يفهم من قوله تعالى : « وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً » والرسول -صلى الله عليه وسلم- يقول فيما رواه حذيفة : « ما أحسن القصد فى الغنى ، وما أحسن القصد فى الفقر ، وما أحسن القصد فى العبادة » وقد قيل : « إن الْمنْبَتَّ لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى » .

وذهب جماعة إلى أن الإنفاق فى طاعة الله ليس سرفاً مهما بلغ ، ولهذا ترك رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيدنا أبا بكر يتصدق بماله كله ، وأقره عليه ، وقال ابن عباس - رضى الله عنهما - : « من أنفق مائة ألف دينار فى حقٍّ فليس بسرف ، ومن أنفق درهماً فى غير حقه فهو سرف » ومن منع فى حق عليه فقد قتَر » قال النحاس : ومن أحسن ما قيل فى معناه : « أن من أنفق فى غير طاعة الله فهو الإسراف ، ومن أمسك عن طاعة الله - عز وجل - فهو الإقتار ، ومن أنفق فى طاعة الله تعالى فهو القوام » وسمع رجل رجلا يقول : لا خير فى الإسراف فرد عليه بقوله : « ولا إسراف فى الخير » .

والرأى الفقهى فى هذا أن يترك المؤمن لذويه ما يقيهم العوز ، لقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » وهو الظاهر من معنى الآية .

(وَقَوامًا) : - بالفتح - وسطاً وعدلًا ، وسمى قواماً ، لاستقامة الطرفين وتعادلهما ، وقرىء : قِواما - بكسر القاف - فقيل : هما لغتان بمعنى واحد ، وقيل : القِوام - بالكسر - : ما يقام به الشيء ، ومعناه هنا ما تقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص .

(وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾)

المفـردات :

(أَثَامًا) : عقابا شديدا لا يقادر قدره على إثمه ، والكلام على حذف مضاف ، أى : يلق جزاء أثام .

(يَخْلُدْ) : يقيم فيه أبدا ، وأصل الخلود فى اللغة : المكث الطويل .

(مُهَاناً) : حقيرا ذليل النفس .

(مَتَاباً) : رجوعا عظيم الشأن مرضيا عنه .

التفسير

٦٨ - (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ . . .) الآية .

هذه الآية تتمة لمدح عباد الرحمن ، وقد امتدحهم الله فى الآيات السابقة بما تحلوا به من أصول الطاعات ، والاجتهاد فى تحصيل الفضائل وامتدحهم فى هذه الآية بالبعد عن فعل الكبائر ، ومجافاتها ، والتنصيص على تركهم هذه الكبائر بخصوصها لتهويل أمرها ، وتفظيع جرمها ، وللتعريض بمشركى مكة الذين دأبوا على ارتكابها وأمعنوا فى اقترافها .

والمعنى : أن هؤلاء المؤمنين الذين شرفهم القرآن فأضافهم إلى الرحمن بالعبودية مخلصون فى عبادته ، فلا يشركون معه إلها آخر على عادة المشركين الذين كانوا يشركون آلهتهم فى العبادة مع الله ، كما أنهم لا يقدمون على قتل النفس الإنسانية؛ التى حرم الله قتلها لأى سبب من الأسباب إلَّا بحق يقتضيه كحد أو قصاص يقيمه السلطان عليها ، وكذلك من فضائل صفاتهم أنهم لا يقربون الزنى فإنه يهتك الأعراض ،ويخلط الأنساب ، ويشيع الفاحشة والفساد ، وقد صح عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : سألت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أى الذنب أكبر ؟ قال : « أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك » . قلت : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك » ، فأنزل الله تصديق ذلك : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ . . . » الآية .

وقوله تعالى : « وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ » أى : ومن يفعل ذلك المذكور من الإشراك ، وقتل النفس ، والزنى - كما هو دأب الكفرة - يلق فى الآخرة عذابا شديدا لا يقادر قدره على إثمه ، فالكلام على تقدير مضاف محذوف ، أى : يلق جزاء آثامه .

٦٩ - (يُضَاعَفْ[1] لَهُ الْعَذَابُ . . .) الآية .

أى : أنه تعالى يعذبه على ارتكاب أى ذنب من هذه الذنوب عذابا مضاعفا إذا كان معه الكفر ، أمَّا إذا فعله غير الكافر فلا يضاعف عذابه ، لقوله تعالى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا » ، ومعنى : (وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً) : يقيم فى هذا العذاب مهينا ذليلًا ، يجمع إلى

(١) يضاعف : بدل من (يلق) .

عذاب البدن عذاب الروح ، وتدوم إقامته فى هذا العذاب أبدا إن ضم إلى فعل هذه المعاصى الكفر كما يشعر به قوله تعالى : « إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ . . . » الآية .

٧٠ – (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً . . .) الآية .

أى : أن من رجع عن كفره وأقلع عن إشراكه وآمن إيمانا صادقا لا غش فيه ولا نفاق – من تاب وآمن – من هؤلاء وأولئك وأتبع إيمانه بالعمل الصالح ، وداوم على فعل المأمورات ، وترك المنهيات ، والاستزادة من عمل الخيرات ، واستباق المحامد والفضائل ، فأولئك يتجلى الله عليهم بفيض رحمته ، فيبدل سيئاتهم حسنات ، بأن يمحو سوابق معاصيهم بالتوبة ، ويثبت مكانها لواحق طاعاتهم ، أو يبدّل سبحانه ملكة السيئات ودواعيها فى النفس بملكة الحسنات .

(فَأُولَئِكَ [١] يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيماً) :

أى : فأولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله عظيم المغفرة كريم العفو ، واسع الرحمة بعباده يتفضل بإثابة الطائعين وقبول توبة التائبين .

٧١ – (وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً . فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللهِ مَتَاباً) :

ترتبط هذه الآية بالآية التى قبلها ارتباط العموم والخصوص ، فالآية الأولى فى خصوص التوبة عن الكفر والكبائر والمعاصى المذكورة فيها ، وهذه الآية فى عموم التوبة الشاملة لتوبة عصاة المؤمنين .

والمعنى : كل من تاب إلى الله ، وأخلص فى الرجوع إليه وأقلع عن فعل المعاصى كلها وندم على ما فرط فى جنب الله ، وعلى تقصيره فى تحصيل طاعة الله ، ثم شمر عن ساعد الجد فى إخلاص العبادة والإخلاص فى الطاعة ، فإنه بذلك يكون قد رجع إلى الله تعالى رجوعًا عظيم الشأن مرضيًا عند الله [٢] ، ماحيًا للعقاب محصلًا للثواب .

(١) قوله تعالى : « فأولئك يبدل الله » إشارة إلى الموصول المتقدم فى قوله : « إلا من تاب ... » إلخ باعتبار معناه ، كما أن الإفراد فى الأفعال الثلاثة : تاب وآمن وعمل باعتبار لفظه ؛ لأن الموصولات المشتركة لفظها دائما مفرد ، ومعناها يكون مفردا ومثنى وجمعا ومذكرا ومؤنثا بحسب ما تقع عليه .

(٢) وبتقييد المتاب بالمتاب المرضى عنه عند الله يندفع ما يظهر من اتحاد الشرط والجواب فى قوله تعالى : « ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متابا »

(وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ) :أى ؛ لا يؤدون الشهادة الكاذبة الباطلة ، و (الزُّورَ) : الباطل .

التفسير

٧٢ـ (وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) :

أى : ومن صفات عباد الرحمن التى امتدحوا بها أنهم لا يؤدون شهادة الزور ، ولا يساعدون أهل الباطل على باطلهم ،ليحصلوا على ما ليس لهم ،أو يضيعوه على من يستحقه ، وقيل : لا يشهدون مجالس الزور ، ولا يقفون عليها ، وإذا اتفق لهم أن مروا على مجالس الأقوال الماجنة التى لا تليق بكرام الناس مروا مرورًا عابرًا مكرمين أنفسهم عن سماعها ، والوقوف عندها والخوض فيها ـ عن ابن عساكر عن إبراهيم بن ميسرة قال : « بلغنى أن ابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ مرّ بلهو معرضًا ، ولم يقف ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً » ثم تلا إبراهيم : (وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا) .

(وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾)

المفردات :

(يَخِرُّوا) : من الخرور ، وهو السقوط على غير نظام .

التفسير

٧٣ - (وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) :

أى : والذين إذا ذكرهم أحد بآيات ربهم المنطوية على المواعظ ، الموجهة إلى الاهتداء ، لما فيه سعادة الدنيا والآخرة أكبوا عليها سامعين لها بآذان واعية مجتلين لها بعيون راعية ولم يسقطوا عليها صُمًّا لا يسمعون ، وعميانًا لا يبصرون .

والتعبير عن إقبالهم على آيات الله والانتفاع بها بقوله : (لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا) تعريض بما يفعله الكفار إزاء سماعهم إياها ، من الإعراض عن الاستفادة بها ، كأنهم صم وعميان .

وقيل : الضمير فى (عليها) للمعاصى ، المنوه عنها باللغو ، على معنى : أنهم إذا وعظوا بآيات ربهم المتضمنة للنهى عن المعاصى ، والتخويف من ممارستها ، لم يستجيبوا لتلك المعاصى ، وكانوا كالصم الذين لا يسمعون لها داعيا ، والعمى الذين لا يبصرون لها مرتكبا .

(وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(قُرَّةَ أَعْيُنٍ) : من القرّ - بالضم - وهو : البرد ، كناية عن السرور ، لأنهم يقولون : دمعة السرور باردة ، ودمعة الحزن ساخنة ، وقيل : من القرار ، لأن السرور تقر به العين وتسكن ، والحزن يضطرب له النظر ويزيغ ، ولفظ : (الأعين) استعمل فى القرآن كله فى العين الباصرة ، ولفظ : (عيون) استعمل فى العين الجارية . (إِمَامًا) : قدوة يقتدون بنا فى إقامة مراسم الدين ، ولفظ : (إمام) يستعمل فى المفرد والجمع ، وهو فى هذا المقام يراد به الجمع ، وروى عن مجاهد أن : (إِمَامًا) : جمع آم ، بمعنى قاصد ، كصيام جمع صائم ، وكذلك ذكر القاموس .

التفسير

٧٤ـ (وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ . . .) الآية .

هذه الآية انتقال من أوصاف عباد الرحمن فى أنفسهم إلى أمانيهم فيمن يحبونهم ، ويرتبطون بهم .

والمعنى : أن من صفات عباد الرحمن ألَّا ينسوا وهم فى شغلهم من عبادة الله ، والانهماك فى طاعته ، لا ينسون أهلهم ، وأولادهم ، يتوجهون إلى الله بالدعاء لهم ، وطلب هدايتهم ـ وهذا شأن الصالحين من الآباء ، بل إن من الآباء من يقدم ولده على نفسه ، ويؤثره بالخير له ، وخير الآخرة عند الصالحين أفضل ما يرجى للأهل ، والأولاد ؛ لأنه الأبقى ، وإن المؤمن إذا ساعده أهله وولده فى طاعة الله ؛ اشتد سرور قلبه ، وقرت عينه ، لما يشاهده منهم من مشاركتهم فى مناهج الدين ، وتوقع لحوقهم به فى نعيم الآخرة ، طمعا فى عِدَة الله تعالى بقوله : « وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ » وقد ذكروا أنه كان فى أول الإسلام يهتدى الأب والابن كافر ، ويهتدى الزوج والزوجة كافرة ، فلا يطيب عيش ذلك المهتدى ، فكانوا يدعون هذا الدعاء .

ولهذا كان من الصفات التى امتدح الله بها عباده أنهم يتجهون إليه بالدعاء لصلاح أزواجهم وذرياتهم ، يقولون : ربنا ارزقنا وهب لنا من أزواجنا وذرياتنا ما يسرنا وتقر به أعيننا من توفيقهم للطاعات ، واحتيازهم للفضائل التى هى غاية ما نرجوه لصلاح ديننا ودنيانا ، أما زهرة الدنيا وزينتها فلا تغلبنا على أخرانا .

ثم يعودون إلى أنفسهم بالدعاء لها بقولهم : (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) : أى اجعلنا بحيث يقتدى بنا المتقون ؛ فى إقامة مراسم الدين بتعلم العلم ، والتوفيق فى العمل .

وعن مجاهد : اجعلنا قاصدين للمتقين ، مقتدين بهم ، وهذا المعنى : مبنى على أن (إِمَامًا) : جمع آمٍّ ، بمعنى : قاصد ، والمعنى الأول أوفق ، وفيه ـ على المعنى الأول ـ أن الرياسة فى الدين ؛ ينبغى أن تطلب لمن يأنس فى نفسه حسن القيام بها ، وتحقيق مقتضاها بعدل وأمانة .

(أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾)

المفـردات :

(أُولَٰئِكَ) : إشارة إلى الموصوفين بجميع الصفات السابقة ، وهو مبتدأ خبره الجملة التى بعده وما عطف عليها ، وجملة أولئك يجزون . . . إلخ خبر عن (عبادالرحمن) .

(الْغُرْفَةَ) : الدرجة العالية من المنازل ، وكل بناءٍ مرتفع ، وقيل : أعلى منازل الجنة ، و « ال » فيها للجنس ، والمراد بالغرفة الجمع ، فأَلْ فيه للاستغراق ليوافق قوله تعالى : « وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ».

(تَحِيَّةً) : دعاء بإطالة الحياة .

(وَسَلَامًا) : دعاء بالسلامة من كل ما ينغص عليهم طيب إقامتهم .

التفسـير

٧٥ـ (أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . . .) الآية .

أى : أولئك الموصوفون بما سبق من الصفات الجميلة يجزون الغرف العالية فى الجنة ينعمون فيها بما لاعين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر ـ أولئك يجزونها ـ بسبب صبرهم على مداومة الطاعات ، واجتهادهم فى أعمال الصالحات ، ومجاهدتهم فى مقاومة الشهوات ، وتتلقاهم الملائكة ، أو يتلقى بعضهم بعضا بالتحية المتضمنة دوام إقامتهم ، والسلام المتضمن معافاتهم ؛ من كل ما يكدر صفو نعيمهم أو ينغص نعيم إقامتهم تكريماً لهم وابتهاجا بحلولهم ، وزيادة فى أنسهم ، وإدخال السرور عليهم .

٧٦ - (خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا) :

هذه الآية تأكيد لما تقرر فى الآية السابقة ، وزيادة فى طمأنتهم ، ومعنى : « خَالِدِينَ فِيهَا » مقيمين فى الجنة أو فى الغرفة إقامة دائمة لاتنقطع فلا يموتون ولايخرجون ، وقوله تعالى فى شأن الجنة مقر المؤمنين : « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً » فى مقابلة قوله تعالى فى شأن جهنم مقر المشركين : « سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَاماً » ، ومعنى « حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا » : طابت دار سكن واستقرار ، ومقام راحة ونعيم ؛ لمن اكتملت لهم الصفات الكريمة ؛ التى اشتملت عليها الآيات السابقة ، وهى كما يلى :

١ - معاملتهم الخلق بالتواضع ولين الجانب فى قوله تعالى : « الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا » .

٢ - التسامح ، والصفح ؛ فى معاملة السفهاء ، والجاهلين ، فى قوله تعالى : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » .

٣ - التهجد ليلًا والاجتهاد فى العبادة فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا » .

٤ - الخوف من الله ، والإشفاق من عذاب جهنم فى قوله تعالى : « رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ . . . » الآية .

٥ - الاعتدال ، والقصد فى الإنفاق ؛ فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا . . . » الآية .

٦ - الإيمان الجازم بوحدانية الله ، واحترام حرمة النفس البشرية والعفة فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ . . . » الآية .

٧ - اتباع الحق ، وتجنب شهادة الزور ، ومجامع اللهو فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ . . . » الآية .

٨ – الاتعاظ بآيات الله تعالى وحسن تلقيها ، والانتفاع بها فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . . . » الآية .

٩ – التماس صلاح الأهل والذرية بالدعاء لهم فى قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا . . . » الآية .

(قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٧٧﴾)

المفردات :

(مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى) : ما استفهامية ، والمعنى : أىَّ عبءٍ يعبأُ بكم ربى ، وأى اعتداد يعتد بكم ؟ تقول : ما عبأْت به ، أى : ما اكترثت .

(لِزَامًا) : لازمًا ثابتًا لاينفك .

التفسير

٧٧ – (قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ . . .) الآية .

فى هذه الآية أمر لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – بأن يبين للناس أن الفائزين بتلك النعماء الجليلة التى يتنافس فيها إنما نالوها بما عدد من محاسنهم ولولاها لم يعتد بهم أصلًا .

والمعنى : قل يا رسول الله لعامة الخلق – مشركين ومؤمنين – مشافهًا لهم : (مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّى) أى عَبءٍ ، ولا يكترث بكم أى اكتراث ، وأنتم العبيد الضعفاء ، والمخلوقون الفقراء ، لولا دعاؤكم وعبادتكم ربكم ، فإنكم ما خلقتم إلَّا لعبادته مصداقًا لقوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُون . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ » .

وقوله : «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ» معناه : فقد كذب الكافرون منكم ،وإذا كان التكذيب حالهم مع قيام الحجة عليهم فسوف يكون العذاب لازمًا ثابتًا لهم .

واختار غير واحد أن الآية كلها خطاب لكفار قريش، والمعنى على هذا قل لهؤلاء المشركين : ما يعبأُ بكم ربى لولا دعاؤه إياكم إلى التوحيد تقويمًا لوجودكم ، وتنظيمًا لسلوككم ، وارتفاعًا بأعمالكم عن العبث ،حتى لا تكونوا هملًا كالبهائم تسيرون لغير غاية ، وتعملون لغير هدف ، وتنتهون إلى النار ،فقد كذبتم مع قيام الحجة عليكم فكان العذاب لزامًا لكم مابقيتم على كفركم .

وهكذا : تنتهى سورة الفرقان ، وقد تضمنت آياتها تصنيف الخلق إلى صنفين : صنف كذب وأغرق فى الكفر ، والعناد ، ومعارضة الرسول –صلى الله عليه وسلم– وقال : القرآن أساطير الأولين ، وعاب أن يكون الرسول – صلى الله عليه وسلم – بشرا يأْكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، واقترح نزول الملائكة أو رؤية الله تعالى وعارض نزول القرآن مُنجَّما ،وعَمِىَ بصره وطمست بصيرته عن تدبر آيات الله فى كونه ؛ فاستحق عذاب جهنم خالدا فيها ساءت مستقرًّا ومقاما .

وختمت بصنف آخر استجاب للدعوة ، وصدق الرسالة والرسول – صلى الله عليه وسلم – وأخلص فى العبادة والتوحيد ، وجد فى الطاعة فروضها ونوافلها ، وجانب المحرمات ، وخالف الشهوات ، وتحلَّى بكريم الصفات ، فاستحق الجزاء الكريم ، فى نعيم الجنة خالدا فيها حسنت مستقرًّا ومقاما .

بسم الله الرحمن الرحيم

« سورة الشعراء »

هذه السورة مكية ، وآياتها سبع وعشرون ومائتان ، وسميت بهذا الاسم لأن الله ذكر فيها طرفًا من أحوال الشعراء فى قوله تعالى : « وَالشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَايَفْعَلُونَ . . . » إلخ .

وهذه السورة لها اتصال وثيق بالسورة التى قبلها : (سورة الفرقان) فكلتاهما بدأهما الله بالإشادة بالقرآن العظيم ، وفيهما أيضًا تسلية لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — عما يبدر من قومه من ألوان الإيذاء والإعراض ، فضلًا عن أن فى هذه السورة بسطًا وتفصيلًا لبعض ما مر فى سورة الفرقان من أخبار الرسل — عليهم السلام — مع من أرسلوا إليهم .

محتويات هذه السورة

١ — أنها نوهت بفضل القرآن ووصفته بالكتاب المبين ، وأشارت إلى إعراض قريش عن الإيمان به ، وتألمه — صلى الله عليه وسلم — لذلك : (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) .

٢ — أنها عُنِيَتْ بأخبار وقصص بعض رسل الله — عليهم السلام — مع أقوامهم ، وبسطت بعضها كقصة سيدنا موسى مع فرعون وقومه ، وقصة سيدنا إبراهيم مع أبيه وقومه ، وما جرى بينه وبينهم من مجادلات ومحاورات أيد الله فيها خليله بالبراهين الساطعة فبهت الذى كفر ، ثم جاء فيها ذكر لقصص بعض الأنبياء : كنوح ، وهود ، وصالح ، وغيرهم وأن الله أيدهم وكتب لهم الغلبة والفوز على أقوامهم الذين تمادوا فى غيهم وكيدهم ، وكيف كانت الدائرة عليهم ، حيث أيد الله رسله — عليهم السلام — ونصرهم على أعدائهم ومكّن لهم .

٣ — أنها أشادت فى آخرها بالقرآن الكريم .

قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ » وأفحمت المشركين وأبطلت زعمهم من أن القرآن من وحى الشياطين ، وكانت نهاية السورة متلاقية مع بدئها بيانًا لمنزلة القرآن العالية ومكانته السامية ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ
نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ
مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟
فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى
ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾)

المفردات :

(الْكِتَابِ الْمُبِينِ) : القرآن الواضح الدلالة .

(بَاخِعٌ نَّفْسَكَ) : مهلكها .

(آيَةً) : معجزة .

(ذِكْرٍ) : موعظة تذكرهم .

(مُحْدَثٍ) : مجدَّد لم يسبق نزوله .

(زَوْجٍ كَرِيمٍ) : صنف طيب لذيذ .

التفسير

١ ـ (طسٓمٓ) : يقول سلف هذه الأُمة الإسلامية فى هذه الكلمة وفى أمثالها : إنها من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه ، وقيل : إنها للإيقاظ والتنبيه إلى سماع القرآن ؛ فإنها لفظ لاتألف الآذان ابتداء الكلام به فيلفتها إلى الإصغاء ، وقال قوم : إن المقصود : هو التحدى للعرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، فهو يشير إلى أن القرآن مكون من هذه الحروف التى تتركب منها كلماتهم ومع ذلك لم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله ، وقد سبق الكلام مستوفًى على مثله فى أول سورة البقرة ، وآل عمران وغيرهما ، فارجع إليه إن شئت .

٢ ـ (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ) :

(تِلْكَ) : إشارة إلى أن آيات القرآن الكريم قد سمت منزلتها ، وعلا قدرها ، وعظم شأنها ، وجلت عن أن يدانيها كلام البشر ، فهى آيات الكتاب المنزل من عند الله الذى أبان فيه الحق وأظهر الأَحكام وتحدث عن أخبار الأُمم السابقة ، وعن آيات الله الكونية بأُسلوب أعجز الجن والإنس : « قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا »[١] .

٣ ـ (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) :

كلمة (لَعَلَّ) تستعمل لغة فى إشفاق المتكلم ، ولما استحال فى حقه سبحانه ، وجهوه إلى المخاطب ، ولما كان غير واقع من النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أيضًا ، قالوا : المراد الأَمْرُ به ، لدلالة الإنكار المستفاد من سوق الكلام عليه ، فكأَنه قيل له : أشفق على نفسك أن تقتلها وتهلكها حسرة وكمدًا لاستمرار قومك على الكفر[٢] ، وتمسكهم بما ورثوه عن آبائهم من الضلال والزيغ والبعد عن الحق ، فأَمر هدايتهم ليس لك وإنما مرده إلى الله

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٨٨

(٢) وقال العسكرى : هى فى مثل ذلك موضوعة موضع النهى ، والمعنى : لاتبخع نفسك ، وقيل : وضعت موضع الاستفهام ، والتقدير : هل أنت باخع نفسك . . إلخ ـ انظر الآلوسى .

« إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ »[1] ، « إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ »[2] .

٤ - (إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ) :

يبين الله تعالى فى هذه الآية الكريمة السر فى أمره لرسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يترفق بنفسه ويشفق عليها فلا يقتلها فيقول له : إن أردنا أن نأتى بآية ننزلها عليهم من لدنا تقهرهم وتلجئهم إلى الإيمان وتكرههم عليه فتذل له رقابهم وتخضع له نواصيهم وينقادون إليه دون إرادة منهم فلا يستطيعون فكاكًا ولا هربًا ، وتَقْسِرُهُمْ على الطاعة فلا يلتفتون إلى معصية أبدًا ، لو أردنا ذلك لفعلنا ، ولكن حكمتنا اقتضت أن نبين طريق الخير ونهدى إليه ، ونوضح سبيل الشر ونحذر منه ، ونختبر العباد بذلك لنعلم الذين صدقوا ونعلم الكاذبين ونحاسب كُلاًّ بما يتفق مع عمله إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، فكل نفس بما كسبت رهينة ، وحسبهم ما أنزله الله تعالى على رسوله من معجزة القرآن الكريم ، فهى أقوى المعجزات فى عصر العلم .

٥ - (وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) :

هذا بيان لشدة عنادهم وتماديهم فى باطلهم وإصرارهم على ما كانوا عليه من الكفر ، والتكذيب ، فقد لجوا فى الطغيان وتجاوزوا الحد فى الضلال ، وعموا وصموا عمَّا يأتيهم من الآيات والمواعظ التى يجدد الرحمن إنزالها لهم من مكنون غيبه وقديم كلامه[3] حسبما تقتضيه حكمته البالغة ورحمته الواسعة ، وذلك ليردهم إلى الحق ويهديهم سواء السبيل ، ولكنهم لا يقابلون ذلك إلَّا بالتَّولِّى والإعراض ، وفى ذلك ما فيه من الحماقة ورداءة التفكير وسوء التقدير ، فرحمة الله ينبغى أن تقابل بالشكر والطاعة لا بالعصيان والإعراض .

---

(١) سوررة القصص ، من الآية : ٥٦

(٢) سورة الغاشية ، من الآية : ٢١ ، والآية : ٢٢

(٣) يقول الإمام البوصيرى - رضى الله عنه - :

آيات حق من الرحمن محدثة قديمة قدم الموصوف بالقدم

٦ـ (فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَآءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ) :

أى : لم يقتصر أمر هؤلاء الذين لم يؤمنوا بك من قومك على الإعراض والانصراف عما يأتيهم من الذكر والموعظة ، بل تجاوزوا ذلك إلى التكذيب الصريح فجعلوا القرآن الكريم تارة سحرًا ، وأخرى أساطير الأولين ، ومرة شعرًا ، وقد هددهم وأنذرهم عذابًا منكرًا ينزل بهم ، وقارعة تحل بساحتهم ينتشر خبرها ، ويذاع أمرها ، فيجمع الله عليهم بين العذاب الأليم ، وكشف أمرهم بين الناس حتى يتحدثوا بما نزل بهم من نكال وخزى جزاءً وفاقًا لاستهزائهم وسخريتهم ، وقد رتب الله ـ سبحانه ـ نزول العذاب على استهزائهم فى قوله : « فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنبَآءُ . . . » الآية ، مما يُؤْذِنُ ويدل على أن العذاب واقع لا محالة ، فقد أصابتهم فى بدر هزيمة منكرة قتل فيها وأسر صناديدهم ، ويجوز أن يراد من الأنباء : أخبار انتشار الإسلام وعلو شأن القرآن الذى كانوا به يستهزئون .

ومن أغراض هذا الوعيد أن يترفق النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بنفسه فلايشق عليها ويعرضها للهلاك أسفًا وحزنًا على قوم قد أوغلوا فى الكفر ، وختم الله على قلوبهم فلا تنفذ إليها الهداية ولايرجى منهم خير .

٧ـ (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) :

ينكر الله ـ تعالى ـ عليهم ماهم فيه من إعراض وتكذيب واستهزاء بآيات الله الكونية بعد أن أعرضوا وسخروا من آيات الله التنزيلية ، أى : أفعلوا ما فعلوا ، وأصروا على الكفر والتكذيب ولم ينظروا إلى الأرض وما فيها من عجائب تدعوهم إلى الإقبال على الله إيمانًا وتصديقًا ، وتمنعهم وتزجرهم عما اقترفوه من السخرية والإعراض عن آيات القرآن الكريم ـ أفلم ينظروا إليها ـ وهى تنبت ما يفيد الناس وينفعهم من نبات يختلف صورة ومنافع

فلو أن الأمر لطبيعة الأرض ، لما أنبتت نباتًا ، فإنها لا عقل لها ولاتدبير ولا قدرة ولا إرادة وقوله : (كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ) : استئناف لبيان مافى الأرض من أمور تثير العجب وتدعو إلى الإيمان بالواحد الديان ، أى : أنبتنا فى الأرض من كل صنف جليل النفع عظيم الفائدة ، يدرك ذلك كله من أنعم الله عليه بِنِعْمَةِ الفهم الدقيق والإدراك السليم ، وأمده ببصيرة نافذة نيرة ، ويغفل عنه الغافلون فلا يعقلون .

وفى الأرض أصناف وأنواع لم يعرف نفعها البشر ، وتتجلّى لهم منافعها على الأيام عندما يحتاجون إليها فى أمور معاشهم وصلاح حالهم، كما أن هناك أشياء يظنها الناس ضارة لا نفع فيها ولكن الحاجة قد تلح فى طلبها ، وتدفع إليها ، ولا يغنى عنها سواها فى إصلاح أمر أو علاج علة أو إبراء مريض « ومن السموم الناقعات دواء » .

٨ - ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ :

أى : إن فيما سبق من إنبات الأرض لكل الأصناف والأنواع التى تعين الإنسان وتقيم حياته ، وتكون متاعًا له ولأنعامه مع عجزه عن تدبير ذلك ، إن فى ذلك لدلالة واضحة وبرهانًا ساطعًا ، على قدرة الله ، وأنه - سبحانه - هو الجدير وحده بأن يؤمن به الناس كافة : « فى كل شىء له آية : تدل على أنه الواحد » ولكن أكثر هؤلاء استمر على الكفر والتكذيب مع عظم الآية وسطوع البرهان ، وانبلاج الحجة التى توجب أن يكونوا مؤمنين منقادين مذعنين .

٩ - ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ :

أى : وإن الله الذى يرعاك ويكلؤك هو صاحب العز الغالب والسلطان القاهر ، وصاحب الرحمة الشاملة والنعمة السابغة ، ومن رحمته أنه قد أمهلهم فلم يأخذهم بسبب كفرهم وإعراضهم واستهزائهم بما جئت به مع قدرته الكاملة وعزه الذى لا يقهر ولا يغالب ، وإنما أكرمهم الله برحمته ، وفاء بوعده لرسوله - صلى الله عليه وسلم - « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ »[1] .

والآيتان : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ » ، « وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ » كررهما سبحانه فى هذه السورة ثمانى مرات ، أولاها هذه ، والسبع الباقيات عقب قصص موسى ، وإبراهيم ، وقوم نوح ، وعاد مع هود ، وثمود مع صالح ، وقوم لوط ، وأصحاب الأيكة مع شعيب .

والحكمة فى تكرارها : تنبيه كفار مكة وغيرهم إلى أن فى كل قصة من هذه القصص عبرة وعظة توجب الإيمان ، وتزجر عن التكذيب والعصيان .

(١) سورة الأنفال ، من الآية : ٣٣

(وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ
فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾
وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ
عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ
إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾)

التفسير

١٠ - (وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) :

فى هذه الآية وما يليها من الآيات يحكى الله قصة موسى - عليه السلام - مع فرعون وقومه ، تسلية لنبيه - صلى الله عليه وسلم - ليشفق على نفسه فلا يهلكها غمًّا وحزنًا لعدم إيمان قومه، فهو يأمره أن يذكر لقومه وقت نداء المولى - تبارك وتعالى - موسى - عليه السلام - ليبلغ فرعون وقومه رسالة ربه ، وما ناله بعد ذلك من مكروه ، وما حقق له ربه من انتصارٍ لحقِّهِ على باطل أعدائه ، وفى ذلك ما فيه من تسلية الرسول - صلى الله عليه وسلم - ببيان أن تكذيب قريش له ليس بأول تكذيب لرسول ، فلست يا محمد أنت وقومك بدعًا من الرسل والأمم قبلك .

والمعنى : واذكر - يا محمد - لقومك أن الله أمر نبيه موسى أن يأتى القوم الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصى ، وظلموا بنى إسرائيل بالإذلال والاستعباد وقتل الأبناء ، واستحياء النساء .

١١ - (قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ) :

بين الله - سبحانه - القوم الظالمين الذين أمر نبيه موسى أن يأتيهم - بينهم - فى هذه الآية أنهم فرعون وقومه ؛ لأنهم تناهوا فى الظلم وأوغلوا فى الطغيان حتى صاروا علمًا عليه وعنوانًا له ، وقد دعا الله إلى العجب من ظلمهم وعدم تقواهم فقال : « أَلَا يَتَّقُونَ » الله - عز وجل - فلا يصدر منهم معصية ولا استعلاء ، وهذا يتحقق بهجرهم كل المعاصى والمظالم ، وكأن سائلًا سأل : هذا ما نادى الله به موسى ، فماذا قال موسى جوابًا لهذا النداء ؟ فكان الجواب هو قوله تعالى حكاية عنه :

١٢ ، ١٣ ، ١٤ - (قَالَ رَبِّ إِنِّى أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ . وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ) :

أى : قال موسى - عليه السلام - وهو فى مقام الضراعة إلى بارئه رب العالمين : يارب إنى أخاف أن يكذبنى هؤلاء حين آتيهم ، ولا يؤمنوا برسالتى ، ولا يصدقوا بِنُبُوَّتِى ، إنى يارب يضيق صدرى ولا ينطلق لسانى لما ينالنى من العى والحَصَر وحبس اللسان بسبب ما يلحقنى من الحزن .

وهذا الذى صنعه موسى - عليه السلام - ليس تشبثًا بالعلل ، ولا للاستعفاء من امتثال أمر ربه - عز وجل - وتلقيه بالسمع والطاعة ؛ بل هو موقف ضراعة وابتهال ، وتمهيد عذر بين يدى رجاوته أن يعينه على الامتثال وإقامة الدعوة على أتم وجه ، ولهذا التمس من ربه أن يبعث جبريل أمين الوحى إلى هارون ويجعله نبيًّا ووزيرًا له من أهله يشركه فى أمره ليشد أزره ويقوى عضده .

ويجأر موسى إلى ربه فيبدى له أن هناك أمرًا آخر يخشاه ويخافه إذ يقول : إن هؤلاء القوم - فرعون وملأه - يرون أن لهم علىَّ تبعة ذنب ، وجريرة جرم ، ذاك أنى قتلت واحدًا منهم ، حين وكزته غير قاصد قتله لما استغاث بى أحد شيعتى ، فهم يُحَمِّلُونَنِى وزر ذنب لم أقصده ، فأخاف إذا ذهبت إليهم وحدى ليس معى عضد ولا سند أن يفتكوا بى بسبب تحميلى دم القبطى ، وأريد أن أؤدى الرسالة ، فادفع عنى يارب أذاهم المرتقب وكيدهم المتوقع ، باختيار أخى هارون نبيًّا لك ووزيرًا مساعدًا لى ، وأعنا على تبليغ دعوتك .

وقد استجاب الله لموسى فحقق رغبته ، وأناله طَلِبَتَهُ بما حكاه القرآن بقوله :

١٥ ـ (قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ) :

قال الله لموسى : كلَّا ، لا تخف ؛ لن يقتلوك ولن يصيبك مكروه ، فالعناية معك والله يعصمك من الناس فلا يترددْ فى صدرك هذا الخاطر ولا يَجُلْ فى نفسك هذا الظن ، فاذهب أنت وأخوك بآياتى الباهرة ومعجزاتى الخارقة فإن فيها أمنًا لك من خوفك وتثبيتًا لقلبك وتأييدًا لدعوتك وأنا معكم جميعًا بسمعى وعلمى أُحيطكما بالرعاية والتأييد والنصر ، وأمدكما بالعون وأما فرعون فسأكون ضده بالتخذيل والتخويف فلا يصل إليكما ولا ينال منكما .

١٦ ـ (فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

فاذهبا ياموسى أنت وأخوك هارون إلى فرعون ذلك الذى يدعى الألوهية ويقول : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى »[1] فقولا له قولاً لينًا لا غلظة فيه ولا قسوة ؛ لعله يتذكر ما قد أنساه سلطانه وجبروته من أنه مربوب لله رب العالمين ، ليقل كل منكما له : إنه رسول رب العالمين[2] ، وفى ذلك رد لدعوى فرعون أنه إله ، وإشعار له بأن للعالمين ربا واحدا هو الذى بعثهما إليه ، وفى هذا الأسلوب حمل لطيف لفرعون على أن يمتثل أمر ربه رب العالمين .

١٧ ـ (أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) :

أى : أطلق سراح بنى إسرائيل وفك إسارهم ودعهم يذهبوا معنا حيث نذهب ، وهو يقصد بذلك توجههم إلى فلسطين .

---

(١) سورة النازعات ، من الآية : ٢٤

(٢) ويجوز أنه أفرد مع أنهما رسولان ؛ لأنه مصدر وصف به ؛ ولهذا أفرد تارة وثنى أخرى ؛ ومن استعماله مصدرا قول الشاعر :

لقد كذب الواشون؛ ما فهت عندهم بسر ولا أرسلتهم برسول

أى : برسالة .

(قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾
وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ
إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ
لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا
عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾)

المفردات :

(تَمُنُّهَا عَلَىَّ) : تعدها نعمة وفضلا .

(عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) : اتخذتهم عبيدا .

التفسير

١٨ - (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ) :

قال فرعون موجها كلا مه إلى موسى بعد أن نفَّذ موسى وأخوه هارون أمر الله وأبلغا فرعون الرسالة ، وطلبا إليه أن يرسل معهما بنى إسرائيل - قال فرعون ردا عليه - :

ألم نقم على رعايتك والعناية بك فى منزلنا طفلا مولودا ،وذلك بعد أن تم التقاطك على يد أهلنا وخدمنا ، وبقيت يا موسى تقيم بيننا كواحد منا السنين من عمرك ، وكان الأولى بك والأجدر - تقديرا لنعمتنا عليك - أن تكون معنا وأن تؤمن بنا ، لا أن تكون داعياً لنا وموجها ، وكلام فرعون هذا يوحى بالتقريع والتوبيخ لموسى - عليه السلام - ، ولذا عقبه بقوله :

١٩ - (وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ) :

وصنعت ياموسى تلك الفعلة التى أنكرناها عليك ، حيث قتلت القبطى انتصارا لشيعتك ، واستهانة بنا ، وأنت بذلك كافر بنعمتنا عليك متنكر لما أسديناه لك جاحد

لما أسلفناه من تربية ورعاية ، أو : وأنت من الذين كفروا بديني ، أو بألوهيتي بعد عودتك من الجهة التي فررت إليها ، فعظم بذلك ذنبك عندنا .

والواقع أنه - عليه السلام - لم يكن على دينهم قبل فراره ، ولكن سكوته عنهم من باب التقية ، فكفره بدين فرعون قديم قبل الهجرة ، والمستحدث إنما هو الإعلان عنه بعد العودة ، والرأى الأول هو الظاهر ، وهو ما قاله ابن زيد .

٢٠ - (قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ الضَّآلِّينَ) :

قال موسى - عليه السلام - فى مقام الرد على ما أثاره فرعون - : فعلت تلك الفعلة ووكزت القبطى تلك الوكزة التى قضت عليه ، والحال أنى من الجاهلين بما تفضى إليه تلك الضربة إذ ماكنت أعتقد أنها تقضى على القبطى وتقتله ، وكان هدفى هو الانتصار لمظلوم وتأديب باغ ومعتد ، ولو كان الأمر كما تظن وأنى قاتل مفسد - كما تدعى - لاستجبت لمن استصرخ بى وكررت تلك الفعلة وانتصرت له ، ولكنى بعدت ونأيت عنه وقلت له : « إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ » .

٢١ - (فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ) :

ومع أن فعلتى - التى عددتها عظيمة وأثيمة - لا تقتضى المؤاخذة ولا تستدعى التقريع والتوبيخ والرمى بالكفر والجحود ، فإنكم تآمرتم على قتلى ودبرتم اغتيالى وإزهاق روحى ، ففررت منكم بعد أن أخبرنى ناصح أمين بما انتويتم وما دبرتموه بليل ، هربت منكم إلى ربى .

خرج موسى وهرب فراراً بنفسه وخوفا من حيف يلم به ، أو ظلم ينتظره ، أو قتل يُعَدُّ له ، وأسلم نفسه لربه فملأ قلبه حكمة وعقله رشدا ، وجعله من خاصة خلقه فاصطفاه الله له كليما ، ولعباده رسولا ، وكان - عليه السلام - من أولى العزم من الرسل - عليهم صلوات الله وسلامه - .

٢٢ - (وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ) :

تلك : إشارة إلى تربية موسى فى منزل فرعون المستفادة من قوله لموسى : « أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا

وَلِيدًا »أى : أن تلك الرعاية التى ظفرتُ بها فى كنفك هى نعمة ظاهرة لديك وواضحة عندك ولكنها فى الحقيقة ليست نعمة ، فالسبيل إليها تعبيدك بنى إسرائيل ، وقصدك إياهم بذبح أبنائهم ، فإنه السبب فى وقوعى عندك ووجودى فى تربيتك .

وقيل : إنه مقدر بهمزة الإنكار ، أى : أو تلك نعمة تمنها علىَّ ، وهى أن عبدت بنى إسرائيل ، وعلى كلا الوجهين فالمقصود : أن عناية الله ـ سبحانه ـ ألقت به إليه وأنه المتسبب فى وصوله إلى منزله ، وأنه ـ تبارك وتعالى ـ سخره للعناية به والقيام على شأنه ومنعه من قتله حتى قالت امرأته : « قُرَّةُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ».[1] فالمنة والفضل لله وحده .

(قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾)

التفسير

٢٣ ـ (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا[2] رَبُّ الْعَالَمِينَ) :

بعد أن دعا موسى ـ عليه السلام ـ فرعون إلى الإيمان برب العالمين تحقيقاً لأمره تعالى بدعوته : « فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ » بعد أن دعاه موسى

(١) سورة القصص ، من الآية : ٩

(٢) ما : استفهامية وغالبا ما تستعمل فى غير أولى العلم ، وهى هنا فى الاستفهام عن رب العالمين ، على تأويل : ما شأن رب العالمين ، أو أنها بمعنى من ، كما فى قوله تعالى : « والسماء وما بناها » : أى ومن بناها .

قال فرعون مستنكرا ما قاله موسى ومستهزئا به : ما هذا الذى تزعم أنه رب العالمين غيرى ؟ وقد كان فرعون يدعى أنه ليس هناك إله غيره .

« مَاعَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى »[١] ولكن نبى الله موسى رد عليه بما حكاه الله بقوله :

٢٤ـ(قَالَ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) :

قال موسى لفرعون ردًّا على استفهامه : رب العالمين هو رب السمٰوات وما فيهن من الكواكب الثوابت ، والسيارات النيرات ، ومن الأرض وما فيها من بحار وقفار وجبال وأشجار ، وحيوان ونبات وثمار ،وما بينهما من الهواء والطير وما سوى ذلك مما لا نشاهده ولا ندركه ،كل ذلك مربوب لله خاضع لسلطانه- سبحانه - « وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ »[٢]

(إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) : أى إن كانت لكم قلوب صالحة لليقين ، وبصائر نيرة تهدى إلى الصراط المستقيم ، أو إن كنتم موقنين بشىء من الأشياء فهذا أولى بالإيقان لظهوره ووضوح دليله ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ له فى كل شىء آية تدل عليه وترشد إليه :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

فما يدعيه فرعون من الألوهية محض كذب وافتراء؛ فليس فى قدرته أن يخلق شيئًا .

٢٥ـ(قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ) :

قال فرعون لمن حوله من وجوهالقوم وأشرافهم وأعيانهم وعليتهم الذين حضروا وشهدوا هذا الحِجَاجَ : (أَلَا تَسْتَمِعُونَ) إلى قول موسى الذى يدعو إلى العجب ويبعث على السخرية والاستهزاء؛ وذلك بادعائه أن هناك إلٰها غيرى وربا سواى؟ .

وإيراد فرعون كلامه على هذا النحو ليهوِّن من شأن موسى ، وينال منه ، وذلك منعا لقومه أن يميلوا إلى موسى وينعطفوا نحوه ويعاضدوه .

(١) سورة القصص ، من الآية : ٣٨

(٢) سورة الأنعام ، من الآية : ١٨

٢٦ - (قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَآئِكُمُ الْأَوَّلِينَ) .

قال موسى على سبيل التوضيح والتصريح لما اشتملت عليه إجابته السابقة ، وليضع فرعون بكل جبروته وصلفه فى موضعه الصحيح ، وينزله من مرتبة الألوهية التى ادعاها لنفسه إلى مرتبته الحقيقية ، مرتبة العبودية التى يتساوى فيها مع الناس جميعاً : الله ربكم يا فرعون ومن معك ، ورب آبائكم الأقدمين ، فلا سبيل لك إلى ادعاء الربوبية لأحد من خلق الله : فما أنتم إلا عباد له سبحانه كسائر عباده .

٢٧ - (قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ) :

اتسم هذا الأسلوب بالسخرية والاستهزاء إمعاناً فى صد القوم عن موسى - عليه السلام - فقد أضاف رسالة موسى إلى المخاطبين فقال : « إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ » . وترفَّع أن يكون رسولا إليه ، كما ترفع وتكبر أن يذكر موسى - عليه السلام - باسمه فقال : (الَّذِى) ثم كان منه أن رماه بالجنون ، ليكون أبلغ فى صد الناس وصرفهم عن اتباعه ، فكأنه يقول لهم : كيف يليق بكم - وأنتم العقلاء - أن تصدقوا معتوها ، وتتبعوا مجنونا؛ إن فرعون يريد من وراء هذا إثارة غضبهم على موسى واحتقارهم له .

٢٨ - (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) :

لم يكترث موسى بما وجهه له فرعون من نقائص ، بل جابهه بالحق إذ قال : رب العالمين هو رب المشرق والمغرب وما بينهما ، فهو رب السماء بما حوت من الثوابت والسيارات الذى دبرها تدبيرا محكما ، وقدرها تقديرا متقنا فى نظام مستمر دائم على وجه عجيب دقيق ، وهذا لا يكون إلا من مدبر حكيم قدير عليم ، فإن كان هذا الذى يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقاً فليعكس الأمر وليجعل المشرق مغربا والمغرب مشرقا .

(إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ) : أى إن كنتم تعقلون شيئًا ، أو إن كنتم من أهل العقل علمتم أن الأمر كما قلت وبينت لكم وأرشدتكم ، فآمنتم بى رسولا لله رب العالمين .

وفى الكلام تلميح إلى أنهم لا عقل لهم فكأنَّ موسى قال لهم : أنتم أولى بما وصفتمونى به من جنون ، وما رميتمونى به من عَتَه .

(قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾
قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ
فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾
يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ
ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾)

المفردات :

(بِشَىْءٍ مُّبِينٍ) : معجزة واضحة .

(ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) : أى ثعبان لا شك .

(الْمَلَإِ) : أشراف القوم وساداتهم .

التفسير

٢٩- (قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) :

أحس فرعون صلابة موسى وقرأ فى عينيه أنه لا يحيد عن دعوته ولا يتخلى عن رسالته ، وأفحمه موسى وأعجزه ، فلم يستطع جوابا ، فلجأ إلى التهديد بالتعذيب ، وهذه

آية العجز وأمارة الضعف عند مقابلة الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، فالمتسلط الجبار عندما يعوزه الدليل وتتأبى عليه الحجة يجنح إلى البطش والتنكيل حفاظاً على هيبته وإبقاء على مكانته ، فقال له :لئن جعلت لك إلٰهاً سواى ،وتماديت فى دعواك أنك رسول رب العالمين ،لأجعلنك من المسجونين الذين تعرفهم ، وتعرف ألوان العذاب الّتى أُنْزِلها بهم .

ولكن موسى – عليه السلام – لم ينقطع أمله فى إيمان فرعون فتلطف به وقال ماحكاه الله بقوله :

٣٠– (قَالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ) :

أى : أتجعلنى من المسجونين الذين تعذبهم وتعاملنى معاملتهم ولو جئتك بشىء هائل عظيم موضح لصدق دعوتى ،مؤيد لرسالتى؟ فتحداه فرعون بما حكاه الله بقوله :

٣١– (قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) :

قال فرعون : فَأْت بهذا الشىء إن كنت صادقا فى دعواك أنك رسول رب العالمين ، وما أظنك إلا كاذباً فيما تدعيه .

طابت نفس موسى واطمأن إلى نصر الله الذى أعلمه أن عصاه ستصير ثعبانا عظيما .

٣٢– (فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) :

فألقى موسى عصاه ورمى بها إلى الأرض ، فإذا هى بقدرة الله ثعبان واضح الحيوانية الثعبانية ،لا تمويه فيه ولا تخييل ،فليس ممايفعله السحرة .

٣٣– (وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّاظِرِينَ) :

أخرج موسى يده من جيبه فإذا هى بيضاء لها شعاع قوى يبهرالناظرين ، فماذا قال فرعون وقد بهرته آية موسى ؟ ماذا قال وقد فقد الأمل فى الانتصار عليه بحجاجه ومناقشته ؟ .

٣٤ـ (قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) :

قال فرعون لزعماء قومه وكبرائهم حين وجودهم حوله مهونا من أمر موسى ومن الآيات البينات المصدقة له فى دعواه الرسالة من رب العالمين ـ قال ـ : إن هذا المدعى لساحر بارع فى علم السحر ، فائق فيه ، حاذق له ، متقن لقواعده وأصوله ، فما جاء به اليوم أمامكم ليس معجزة إلهية كما يدعى ، وإنما هو أمر يأتى به الساحر العليم فليس هذا دليلا على صحة ما يدعيه من رسالته ، ومن وجود إله غيرى ، ثم هيجهم وحرضهم على الخروج عليه ومخالفته والوقوف فى وجهه والكفر به ، فقال :

٣٥ ـ (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ) :

(يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ) :

أى : يريد موسى أن يستولى على قلوب الناس ويميلها معه بسحره هذا حتى يكثر أعوانه وأنصاره ويغلبكم على دولتكم فيأخذ البلاد منكم ، ويستعبدكم فتذهب عزتكم ويزول سلطانكم وتكونوا أتباعاً وخدما بعد أن كنتم سادة أعزة .

(فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)[١] :

بَهَرَ سلطان المعجزة فرعون وحيره حتى نزل به عن ذروة ادعاء الربوبية بقوله : « أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى »[٢] فاستأمر الملأ من قومه وأظهر حاجته إلى رأيهم بعد أن كان مستقلا بالرأى مستبدا بالتدبير ، وذلك لأنه استشعر الخوف من استيلاء موسى على ملكه ، قال لهم : أشيروا على فى أمره : ماذا أصنع به حتى أجنبكم شر إخراجكم من دياركم ، وتفريق جمعكم ، والقضاء على عزكم وجاهكم ؟ فإن من أصعب الأشياء على النفوس أن يذل المرء بعد العز ، فكان أن أشار عليه أصحاب الرأى فى قومه بما يحكيه قوله تعالى :

٣٦ ، ٣٧ ـ (قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ . يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ) :

أى : أجّل أمر موسى وأخيه ، وأخّر البت فى شأنهما فليس الأمر هينا سهلا ، إنه فى حاجة إلى أن تجمع من مدائن مملكتك وأقاليم دولتك ، كل ضالع فى السحر عليم بضروبه

(١) (تأمرون) إما من الأمر ، فيكون قد طلب ممن زعمهم عبيده أن يأمروه ، وإما من المؤامرة والمشاورة وسياق مزيد إيضاح لذلك .

(٢) سورة النازعات ، من الآية : ٢٤

وأنواعه ، بصير بفنونه ، كى يقابلوا موسى ويأتوا بنظير ماجاء به ، أو بأشد منه تأثيرًا فتغلب أنت ، وتكون لك النصرة والتأييد .

وكان هذا من تسخير الله – تعالى – لهم أن نطقوا بما نطقوا ، وأتوا بمشورتهم هذه ليجتمع السحرة مع الناس فى صعيد واحد ، وتظهر آيات الله ومعجزاته قاهرة لجميع السحرة أمام الناس فى وضح النهار .

٣٨ – (فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ) :

جَمع رجالُ فرعون وأعوانه السحرةَ من جميع مدائن مملكته لوقت معين هو الضحى ، من يوم معلوم هو يوم الزينة ، وهو الوقت الذى حدده موسى – عليه السلام – « قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى »[1] ولعله كان يوم عيد لهم يتزينون فيه ، ويجتمعون له ، وقد اقترحه موسى – عليه السلام – لإظهار كمال قوته ، وكونه على ثقة من أمره ، وعدم مبالاته بهم ، ليكون ظهور الحق وزهوق الباطل فى يوم مشهود .

تكامل عقد السحرة ، واجتمع شملهم ، فيما حدد من زمان ومكان .

٣٩ – (وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ) :

قيل للناس استبطاء لهم ، وحثا ودفعا على المبادرة والإسراع إلى الاجتماع الذى جمع له السحرة البارعون الممتازون – قيل لهم – : (هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ) فهذا الاستفهام مجاز عن الحث والدفع ، فكأنه قيل لهم : أسرعوا بمشاهدة هذا اللقاء بين سحرتنا وموسى[2] وهذا الحث يشعر بأن فرعون مطمئن إلى نجاح سحرته الذين جلبهم وجمعهم من مدائنه .

٤٠ – (لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ) :

لعلنا بعد أن نشهد هذا التحدِّى الكبير نتبع السحرة إن غلبوا موسى ، وكان قد قوى أملهم واشتد رجاؤهم أن لا يتحولوا عن دينهم خوفاً مما زعمه فرعون من قضاء موسى على سلطانهم بإخراجهم من ديارهم ، فليس مرادهم بذلك أن يتبعوا دينهم حقيقة ؛ فهم متبعوه ، وإنما مرادهم أن لا يتبعوا موسى – عليه السلام – لكنهم ساقوا كلامهم مساق الكناية ، حملا لهم على الاهتمام والجد فى مغالبة موسى والانتصار عليه .

(١) سورة طه ، الآية : ٥٩

(٢) ويشبهه ماجاء فى قول الشاعر تأبط شرا :

هل أنت باعث دينار لحاجتنا   أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فإنه يريد : ابعث لنا أحدهما سريعاً ولا تبطىء ، ودينار : اسم رجل .

(فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾)

التفسير

٤١ ، ٤٢ - (فَلَمَّا جَآءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً[1] لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) :

لما عرض موسى معجزَتَي العصا واليد أمام فرعون ارتاع فرعون ونسى ربوبيته ، وقال لأتباعه على الفور مستغيثاً بهم ، وهابطا عن كبريائه : « مَاذَا تَأْمُرُونَ » يعنى أىّ أمر تأمروننى فأُنفذه ، حتى لا يضيع ملكى .[2]

فأشاروا عليه أن يجمع السحرة من أطراف ملكه - هذا ما حكته الآيات السابقة - وجاءت هاتان الآيتان لتحدثنا عن حضور السحرة وما تلاه .

---

(١) (إِذًا) هنا حرف اقترن به الجواب والجزاء وليس ظرفاً ، قيل : هو ظرف الزمان الماضى ، وتنوينه عوض عن جملة ، أى : إذا غلبتم . راجع الآلوسى .

(٢) ويصح أن يكون الأمر هنا من المؤامرة بمعنى المشاورة ، فكأنه قال : ماذا تشيرون به على ، والوجه السابق أنسب بمقام الانبهار الذى جعله ينحط إلى أن يطلب الأمر ممن كان يأمره فيطيع .

ولعل رسله إلى السحرة وعدوهم بحصولهم على أجر جزيل من فرعون إن هم غلبوا موسى - عليه السلام - فأرادوا أن يستوثقوا من ذلك بما حكاه الله عنهم بقوله : « أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » .

والمعنى الإجمالى لهاتين الآيتين : فلما جاء السحرة من أطراف المملكة ، تلبية لدعوة فرعون لينصروه على موسى وأخيه بسحرهم - لما جاءوا لذلك - قالوا لفرعون سائلين مستيقنين : أحق مؤكد أنك جعلت لنا مكافأة وأجرا ، إن كنا نحن الغالبين لموسى لظهور سحرتنا وغلبتهم لعصاه فى يوم الزينة على رءوس الأشهاد ؟ فأجابهم قائلا : نعم لكم أجر جزيل على ذلك ، وإنكم مع حصولكم على الأجر لمن المقربين عندى ، لأنكم نصرتمونى على عدوى الذى أخشاه على ملكى .

٤٣ - (قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ) :

جاء فى سورة الأعراف أن السحرة قالوا لموسى : « يَامُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ »(١) ومن هذا النص نفهم أن موسى - عليه السّلام - لم يقل لهم : « أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ » إلا بعد أن خيره السحرة بين أن يبدأ بإلقاء عصاه ، وبين أن يبدأوا بإلقاء سحرهم ، وقد خلت سورة الشعراء من هذا التخيير ، كما أن صورة الإذن بالإلقاء فى سورة الأعراف « أَلْقُوا » وفى سورة الشعراء « أَلْقُوا مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ » وقد عرفنا من سورة الأعراف أن السحرة لما ألقوا ما معهم « سَحَرُوٓا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » فى يوم الزينة الذى احتشد له الناس ليشاهدوا المعركة بين الحق والباطل وآثارها ، ولم يأت ذلك هنا ، وبالجملة فقد اشتملت سورة الأعراف على مفارقات عديدة فى قصة موسى مع فرعون ، وكلما وجدت قصة موسى وفرعون فى سورة ، وجدت فيها مفارقات بالنسبة لسورة أخرى ، ومثل ذلك يحدث فى قصص غيره من المرسلين مع أممهم .

---

(١) سورة الأعراف ، من الآية : ١١٥ والآية : ١١٦ .

وبالجملة فإن القصص القرآنى جاء فى بعض السور مختصرا ، وفى بعضها مبسوطا ، وأن العبارات فى الموقف الواحد قد تختلف فى سورة عنها فى سورة أخرى .

ويرجع ذلك إلى أن لغة الرسل وأقوامهم لم تكن عربية ، وأن ما جاء فى القرآن عن قصصهم إنما هو ترجمة عربية لما جرى بين الأنبياء وأممهم بلغتهم ، وأن هذه الترجمة تعود إلى أصل المعنى الذى دار عليه الحوار ، أما الحوار نفسه فقد يكون واسع الأطراف كثير الجدل ، متعدد اللقاءات ، متطاول السنين ، فلا غرابة فى أن تجد القرآن الكريم فى سورة يقتصر فى حكاية الحوار وما حوله على المبدأ الأساسى الذى دار عليه الحوار ، وترتبط به العظة المقصودة من سَوْقِ القصة ، وأن نراه فى سورة أخرى يحكى الحوار بصورة أخرى فيها بعضُ البسط ، ليجد القارئ فى إعادة القصة جديداً لم يره فى سورة أخرى ، فيضيفه إلى معلوماته السابقة فى القصة .

وبالجملة فالقرآن الكريم يكمل بعضه بعضا ، وهذا أسلوب بديع تفرد به القرآن بين الكتب السماوية ، لما فيه من إعادة التذكير والوعظ ، مع التشويق إلى تتبع القصة فى مظانها من القرآن ، للاستزادة من المعرفة ، حتى لا يمل من إعادة القصة إذا كانت بأسلوب واحد

وليعلم القارئ أن القصص القرآنى ليس الغرض منه بيان تاريخ الأمم ، بل العظة بما حدث لهم عندما أعرضوا عن رسله ، ولذا احتاج الأمر إلى تكرار قصصه مع التلوين فى حكايتها وسردها .

ومعنى الآية : قال موسى للسحرة لما اجتمعوا فى يوم الزينة : ألقوا ما أنتم ملقونه من أنواع سحركم فلست أبالى بكمه ولا بكيفه .

٤٤ - (فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ) :

أى : فألقى السحرة حبالهم وعصيهم ، وسلطوا عليها سحرهم ورُقاهم ، فانقلبت أفاعى مخيفة ، وثعابين مزعجة وجاءوا بسحر عظيم سحروا به أعين الناس واسترهبوهم وما هو إلا حبال وعصى فى الحقيقة ، فلو لم تسحر عيون الناس لرأوها كذلك ، وقال

السحرة حين رأوا ضخامة سحرهم وأثره فى عيون ووجوه مشاهديهم ـ قالوا حينئذ ـ : نقسم بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون لموسى ، ولا سبيل لغلبته إيانا .

قال ابن عطية ـ بعد أن ذكر أن ما قاله السحرة قَسَمٌ بفرعون ـ قال ابن عطية : والأحرى أن يكون على جهة التعظيم والتبرك باسمه إذ كانوا يعبدونه . . الخ .

ومما يؤسف له أن هذه العدوى تسربت إلى المسلمين ، فتركوا الحلف بالله إلى الحلف بآبائهم وأوليائهم وبغير ذلك مما لا يجوز الحلف به ، فلا حلف إلا بالله أو باسم من أسمائه أو بصفة من صفاته .

٤٥ ـ (فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) :

فألقى موسى عصاه الخشبية الوحيدة ، عقب ثقتهم بسحرهم ، وقسمهم بعزة فرعون إنهم لَهُمُ الغالبون ، ففوجئوا بالأمر الخطير الذى لم يتوقعوه ، وهو أنها انقلبت ثعباناً كبيرا سريع الحركة كأنها جان ، وجعلت تبتلع حبالهم وعصيهم التى أفكوها ، وزعموا أنها أفاعى وثعابين حقيقية ، وما هى إلا حبال وعصى سحروا بها العيون ، فتخيلتها كما يزعمون .

٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ـ (فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوٓا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَٰرُونَ) :

أى : فَخَرَّ السحرة ساجدين لعظمة الله ، كأنهم من فرط تأثرهم بالحق واستجابتهم له ، لم يتمالكوا أنفسهم ، فكأن حالهم كحال من أُخلوا فطرحوا على وجوههم ، أو أنه تعالى ألقاهم بما وفقهم إليه من التأثر ببرهان الحق ، فقد عرفوا أن مثله لا يأتى بطريق السحر ، وعلى هذا فالإلقاء مجاز عن التوفيق لسبب السجود وهو معرفة الحق .

قال الآلوسى : وذكر بعض الأجلة أنهم إنما عرفوا حقيقة ذلك ، بعد أن أخذ موسى ـ عليه السلام ـ العصا فعادت كما كانت ولم يروا لحبالهم وعصيهم أثرا ، وقالوا : لو كان سحرا لبقيت حبالنا وعصينا ، ولعلها على هذا صارت أجزاء هبائية ، وتفرقت أو عدمت لانقطاع تعلق الإرادة بوجودها . انتهى .

والمعنى الإجمالى : فخر السحرة على وجوههم ساجدين لرب العالمين ، إذ عرفوا أن العصا آية لموسى من ديان يوم الدين ، وليست من قبيل سحر الساحرين ، قالوا حين سجودهم : آمنا برب العالمين رب موسى وهرون ، وبذلك الإيمان سقطت ربوبية فرعون من نفوسهم ، واهتزت بين المشاهدين لهم .

(قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾)

المفردات :

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ) : وذلك بقطعه اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس . (لَاضَيْرَ) :لا ضرر . (مُنقَلِبُونَ) : راجعون .

(أن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) : لكوننا أول من آمن من أتباع فرعون .

التفسير

٤٩ - (قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ[١] تَعْلَمُونَ . . .) الآية .

أى : قال الجبار فرعون للسحرة بعد هزيمتهم ، وقد رآهم يستجيبون لموسى ويخرون لله سجدًا - قال لهم حينئذ - : صدقتم بدين موسى لأجله ، دون أن يصدرلكم بذلك إذن

(١) اللام فى قوله : « فلسوف تعلمون » لام الابتداء دخلت على الخبر ، وأصل الكلام من جهة المعنى : فلأنتم سوف تعلمون ، وليست لام القسم : لأنها لاتدخل على المضارع المثبت إلا مع نون التوكيد ، وقيل : إنها القسم ، ولم يؤكد الفعل بالنون للفصل بينها وبينه بلفظ (سوف) و قيل غير ذلك : انظر الآلوسى .

منى ، إن موسى لكبيركم الذى علمكم السحر ، فتواطأتم معه على أن تُغلبوا أمامه ، فهو مكر مكرتموه معا فى المدينة لتخرجوا منها أهلها ، فلسوف تعلمون ما يحل بكم من النكال والوبال .

(لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) :

فى هذه الجملة بيان للعقاب الذى توعدهم به فرعون إجمالا فى قوله : « فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » أى : لأُقطعن اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو العكس ، ولا أقتصر على ذلك ، لأُصلبنكم على جذوع النخل وأربطكم بالحبال عليها ، كما قال تعالى فى سورة (طه) حكاية عنه : (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى »[1]

٥٠ - (قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَى رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ) :

قال السحرة بعد سماع وعيد فرعون الخطير غير مبالين به : لا ضرر علينا فى قطع أيدينا وأرجلنا وتصليبنا ، فالموت فى سبيل الله أسمى أمانينا ، لأننا إلى ربنا الذى آمنا به راجعون حين تقتلنا ، فنرى لديه من الكرامة والعز ، لصبرنا على تعذيبك إيانا ، واستشهادنا فى سبيله ، فلا يزعجنا وعيدك وتهديدك فما أحلى الموت فى سبيل الحق .

ويرحم الله خبيب بن عدى حين قال لآسِريه الذين أرادوا قتله وصلبه ، لثأر لهم عند المسلمين :

ولست أبالى حين أُقتَلُ مُسْلماً على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأْ يبارك على أوصال شِلْوٍ مُمَزَّعِ

وإنما أصر فرعون على صلب السحرة بعد تقطيع أطرافهم ، زيادة فى التنكيل بهم . وأن يكونوا عبرة لغيرهم .

٥١ - (إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ) :

هذا تعليل آخر لانتفاء الضرر على السحرة بقتل فرعون وصلبه إياهم ، أى : لا ضرر علينا حين تنفذ وعيدك فينا ، فإننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا التى حدثت منا أيام الكفر ، لكوننا أول المؤمنين من أتباع فرعون .

وهكذا تهون الأرواح ويُسْتَلَذُّ العذاب فى سبيل مرضاة الله رب العالمين .

(١) من الآية : ٧١

* (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾)

المفردات :

(لَشِرْذِمَةٌ) الشرذمة : الجماعة القليلة من الناس ، والجمع : شراذم .

(لَغَآئِظُونَ) : لفاعلون ما يغيظنا ويغضبنا . (حَٰذِرُونَ) : متأهبون متيقظون .

التفسير

٥٢ - (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ) :

لما ظهر أمر موسى وانتصر على السحرة وأسرعوا إلى الإيمان به نكل بهم فرعون وأعد العدة للقضاء على موسى ومن معه قبل أن يستفحل أمرهم ويتفاقم خطرهم ، ولكن موسى ظل يكافح طغيانه ، ويمده الله من آن لآخر بآياته ، كالطوفان والجراد والقُمَّل وغيرها ، فلا يزداد فرعون إلا كفرًا وإمعاناً فى البغى والأَذى ، فلهذا أمر الله نبيه موسى أن يخرج بعباده بنى إسرائيل من مصر إنقاذًا لهم من الاستعباد والأَذى ، وأرشده إلى الخروج بهم ليلا حتى يسلموا من بطش جنوده ومتابعتهم إياهم .

والمعنى : وأمرنا موسى بوحى منا إليه أن يخرج بعبادى بنى إسرائيل ليلا لأَنَّهُمْ مُّتَّبَعُونَ من فرعون وجنوده ، فليسبقوهم إلى النجاة قبل أن يدركوهم ، وليجعلوا الليل ساترا لهم حتى لا ينكشف أمرهم .

٥٣ - (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ) :

أى : فأَسرى موسى بالمؤمنين ،أى :خرج بهم ليلا امتثالًا لأَمر ربه ، ولما أصبحوا وليس فى الديار أحد منهم ، غاظ ذلك فرعون واشتد غضبه على بنى إسرائيل فأَرسل سريعاً فى

مدائن مملكته وقراها من يحشر الجند ويجمعهم كالنقباء والحجاب ليتبعوهم، وبذلك يحول بين موسى وقومه وبين ما يقصدون من الهجرة والخروج من البلاد .

٥٤ - (إِنَّ هَٰؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ) :

لفظ (هؤلاء) إشارة تحقير لبنى إسرائيل ، أى :قال فرعون لمن حضر مجلسه : إن بنى إسرائيل الذين فروا مع موسى لطائفة قليلة من الناس تشتمل على أسباطهم ، وهم بالنسبة لأعداد قومنا وجنودنا قليلون ، وليس هناك ما يمنعنا من اقتفاء أثرهم والانقضاض عليهم والحيلولة دون هجرتهم ، وعقابهم على فرارهم .

٥٥ - (وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ) :

وإن موسى ومن معه - مع قلتهم وذلتهم - لصانعون بنا ما يغيظنا ويثير الحقد والغضب فى نفوسنا ، لأنهم خالفوا أمرنا وخرجوا دون إذننا ، وحملوا معهم فى مكر وحيلة ودهاء حُلينا وأموالَنا وحُلَلَنا .

٥٦ - (وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ) :

وإنا لجمع طبيعته أن يحذر ويحترس ويتيقظ لكل ما يتوقع من جانب العدو ، فإذا خرج علينا خارج سارعنا إلى تأديبه وإلزامه الطاعة لأمرنا ، فلنا القوة ، وفينا الكثرة .

(فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾)

المفردات :

(وَكُنُوزٍ) : وأموال حفظوها . (وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) : ومساكن حسان يقيمون بها .

(كَذَٰلِكَ)[١] : الإشارة إلى مصدر الفعل ، أى : أخرجناهم إخراجاً مثل هذا الإخراج العجيب ، أو إلى مقام كريم مثل ذلك المقام الكريم .

(مُشْرِقِينَ) : داخلين فى وقت شروق الشمس .

(تَرَآءَ الْجَمْعَانِ) : تقاربا بحيث يرى كل واحد منهما الآخر .

(لَمُدْرَكُونَ): لملحقون . (كَلَّا): كلمة ردع لهم .

التفسير

٥٧ - (فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) :

أى :فأخرجنا فرعون ومن معه من بساتين غناء ورياض فيحاء فيها عيون الماء الجارية .

٥٨ - (وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ) :

أى : وأخرجناهم أيضا من كنوز خزنوها وادخروها ، ومن مساكن طيبة وأماكن شريفة كانوا يقيمون بها منعمين بجمالها وحسن رونقها وبهائها وجميل مرافقها - أخرجناهم من هذه النعم - لأنهم لم يشكروها بالإيمان واتباع الرسول بل كفروا وحاربوا الحق ، وناصبوا الرسل ومن معهم من المؤمنين العداء ، وحاولوا إهلاكهم والقضاء على دعوتهم فحرمهم الله من نعمه وسلبها منهم ؛ لأن المعاصى تزيل النعم .

٥٩ - (كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) :

(كَذَٰلِكَ) : أى أخرجناهم مثل هذا الإخراج العجيب الذى وصفناه (وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ) قال صاحب المنار عند تفسيره لقوله سبحانه وتعالى : «وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ»[٢] :

تعدد فى القرآن التعبير عن استخلاف الله قوما فى أرض قوم بالإيراث على سبيل المجاز .

---

(١) (كذلك) قال الزمخشرى :يحتمل ثلاثة : (أ) النصب على : أخرجناهم إخراجا مثل ذلك الإخراج الذى وصفناه .
(ب) الجر على أنه وصف لمقام - أى : مقام كريم مثل ذلك المقام الذى كان لهم .
(ج) الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف ، أى : الأمر كذلك .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٣٧

أى : وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر -أعطيناهم - مشارق ومغارب الأرض التى باركنا فيها بالخصب والخير الكثير ،وهى : فلسطين تحقيقًا لوعدنا « وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ ونَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ونُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ ونُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ(١) » روى عن الحسن البصرى وقتادة أنهما قالا فى تفسير مشارق الأرض ومغاربها التى باركنافيهاهى :أرض الشام ،وعن زيد بن أسلم قال :هى قرى الشام ،وعن عبد الله بن شوذب :فلسطين ، ويؤيد هذه الروايات قوله تعالى فى إبراهيم-عليه السلام- : « وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ(٢) »وقوله سبحانه : (سُبْحَانَ الَّذِيَ أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ(٣) »وربما يتراءى أن إرادة أرض مصر هى الظاهر المتبادر من قوله تعالى فى سورة الشعراء : «فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِيَ إِسْرَائِيلَ(٤) ».

وقوله فى سورة الدخان : «كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوماً آخَرِينَ(٥) » ولكن الأمر ليس كذلك ، بل المراد أنهم أورثوا بعض أملاك فرعون ، فلقد كانت بلاد فلسطين والشام تابعة لمصر وفراعنة مصر ،ولقد أعطى الله بنى إسرائيل بدلا عن مصر التى أمرهم بتركها فلسطين التى فى الشام.ا ﻫ عن تفسير المنار ص٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ الجزء التاسع ، بتصرف.

ويؤيده :أنه لم يثبت تاريخيا وأثريا أن بنى إسرائيل ملكوا مصر واستولوا على أرضها . بل الثابت الذى يحدثنا به التاريخ أنهم بعد أن كانوا مستضعفين فى مصر وخرجوا منها مع موسى لم يرجعوا إليها ولن يرجعوا - بإذن الله - ومكثوا يتيهون فى الأرض أربعين سنة لمخالفتهم لله ورسوله وتقاعسهم عن قتال الجبارين كما يخبرنا بذلك القرآن الكريم

---

(١) سورة القصص، الآيتان : ٥ ، ٦
(٢) سورة الأنبياء، الآية : ٧١
(٣) سورة الإسراء ، من الآية : ١
(٤) سورة الشعراء ،الآيات : ٥٧ — ٥٩
(٥) سورة الدخان، الآيات : ٢٥ — ٢٨

٦٠ ـ (فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ) : تبع وأتبع بمعنى واحد .

أي :فتبع فرعون وقومه بنى إسرائيل قاصدين إهلاكهم حين أشرقت الشمس .

٦١ ـ (فَلَمَّا تَرَآءَ الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) :

(فَلَمَّا تَرَآءَ الْجَمْعَانِ) : أى فلما تقابل الجمعان بحيث يرى كل فريق صاحبه (قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ) : أى لملحقون فهالكون على أيدى هؤلاء الذين جَدُّوا فى السير وراءنا يريدون إعادتنا للاستعباد أو إهلاكنا ، وقد أكدوا مخاوفهم هذه بالجملة الإسمية المؤكدة بإنَّ واللام .

٦٢ ـ (قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ) :

أى : لن يدركوكم (إِنَّ مَعِىَ رَبِّى) بالنصرة على العدو والحفظ والعون.

(سَيَهْدِينِ) قريباً إلى مافيه نجاتكم منهم ونصركم عليهم،لأن الله دبر الأمر وسيحقق النصر فهو الذى أوحى إلىَّ بالإسراء ووجهكم للخروج وسيقضى عليهم ،وعبَّر بقوله : «إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ » دون أن يقول : « إِنَّ مَعَنَا رَبَّنَا سَيَهْدِينَا » للإيذان بأن بنى إسرائيل مكرمون بالهداية إلى النجاة من الغرق تبعا لرسولهم موسى وكرامته على ربه ، أما هم فليسوا جديرين بالحفظ من الغرق والنصر على العدو ، فإنهم عقب نجاتهم طلبوا من موسى أن يجعل لهم إلهاً كآلهة الشعوب حولهم ، وعبدوا العجل الذى قدمه السامرىُّ لهم ، وقالوا لموسى : « اذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَآ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ » وهم الذين أفسدوا فى الأرض وعلوا علوًّا كبيرا ، ولأجل هذا المقصد حكى الله عن نبيه محمد ـصلى الله عليه وسلم ـأنه قال لأبى بكر وهما فى الغار ،والمشركون على بابه ،والخطر محدق بهما والحزن يملأ قلب أبى بكر خوفاً على الرسول : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » فإنه تعالى كان مع رسوله وصديقه لوفائه لربه ونبيه .

(فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾)

المفـردات :

(فَانفَلَقَ) :فانشق . (فِرْقٍ) : فى المختار الفِرْقُ ؛ الفَلْق من الشيء إذا انفلق ،ومنه قوله تعالى : « فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » وفى القاموس (الفِرق) :القسم من كل شيء. (الطَّوْدِ) :الجبل العظيم . (أَزْلَفْنَا) : قربنا. (ثَمَّ) :ـ بفتح الثاء ـ هناك ، ويشار به إلى المكان البعيد . (الْآخَرِينَ) : المراد بهم فرعون ؛ وجنوده .

التفسـير

٦٣ ـ (فَأَوْحَيْنَآ إِلَى مُوسَىٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ) : لما عظُم البلاءُ على بنى إسرائيل ورأوا من الجيوش ما لاطاقة لهم بها أمر الله ـسبحانه وتعالى ـموسى أن يضرب البحر بعصاه ،وذلك أنه ـعز وجل ـأراد أن تكون الآية متصلة بموسى ومتعلقة بفعل يفعله تثبيتًا لإيمان من آمن من قومه ، وقضاءً على الشك عند من شك منهم ، وإلا فضرب العصا ليس بفالق للبحر ولا معين على ذلك بذاته إلا بما اقترن به من قدرة الله ـعز وجل ـ ولما انفلق عقب الضرب مباشرة صار فيه اثنا عشر طريقا على عدد أسباط بنى إسرائيل ، ووقف الماءُ بينهما كالجبل العظيم ، فلما خرج أصحاب موسى ،

وتكامل آخر أصحاب فرعون داخله انصب عليهم الماء وغرق فرعون ، فقال بعض أصحاب موسى :ما غرق فرعون ، فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه ، والمراد بالبحر :القلزم على الصحيح ، والظاهر أن هذا الإيماء بضرب البحر بعصاه كان بعد القول المذكور ولم يكن مأمورا بالضرب يوم الأمر بالإسراء بقومه ،وجاء إنجازا لتدبير الله وتحقيقاً لوعده بنصر المؤمنين وإغراق الطغاة .

٦٤ - (وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الآخَرِينَ) :

أى : وقربنا فرعون وجنوده من قوم موسى -عليه السلام- حتى دخلوا البحر على أثرهم ويجوز أن يراد : قربنا بعض قوم فرعون من بعض ، وجمعناهم لئلا ينجو منهم أحد ، وفى التعبير عنهم بالآخرين ترفع عن ذكر اسم فرعون الذى ظن نفسه شيئاً ،وليس بشىء أمام قدرة الله .

٦٥ - (وَأَنجَيْنَا مُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ) :

أى :وأنجيناهم من الهلاك والوقوع فى أيدى أعدائهم ،ومن الغرق بحفظ البحر على تلك الهيئة إلى أن عبروا إلى البر .

وقوله : سبحانه (وَمَن مَّعَهُ) إشارة إلى أن إنجاءهم كان ببركة هذه المعية ومصاحبة موسى -عليه السلام- لهم ،وقيل: ليشمل من آمن به -عليه السلام- من القبط، إذ لو قيل : وقومه لتبادر إلى الذهن بنو إسرائيل دون سواهم .

٦٦ - (ثُمَّ أَغْرَقْنَا الآخَرِينَ) :

أى :ثم أغرقنا فرعون وجنوده المحقرين بإطباق البحر عليهم بعد خروج موسى -عليه السلام- ومن معه ، وثم للتراخى الزمنى فى أصل وضعها ، ولكن الظاهر أنهم أغرقوا فور خروج بنى إسرائيل ، فلهذا تحمل هنا على التراخى المعنوى لما بين المعطوفين من المباعدة المعنوية ، فما أبعد الفرق بين الإنجاء والإغراق.

٦٧ - (إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً) :

أى :إن فيما ذكر من معجزة البحر وما كان قبله من معجزات العصا واليد وغيرهما

وسجود السحرة لرب العالمين-إن فى ذلك كله - لآية عظيمة على قدرة الله ونصره لرسله ، وخذلانه لأعدائهم ، وتحذيرا من عاقبة الكفر بالله ورسوله .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : وما كان أكثر قوم فرعون الذين أمر موسى - عليه السلام - أن يأتيهم وهم القبط على ما استظهره أبو حيان حيث لم يؤمن منهم إلاالقليل ،ومنهم آسية امرأة فرعون ،فلهذا استحق جنودهم الإغراق مع فرعون .

وقيل :ضمير (أكثرهم) للموجودينبعد الإغراق والإنجاء من قوم فرعون الذين لم يخرجوا ومن بنى إسرائيل ، والمراد بالإيمان المنفى عنهم : التصديق اليقينىالجازمالذى لايقبلالزوال أصلا ، أى : وما كان أكثر الموجودين بعد تحقق هذه الآية العظيمة وظهورها مُصَدِّقاً ، فإن الباقين بمصر من القبط لم يؤمن أحد منهم ، وأكثر بنى إسرائيل كانوا غير متيقنين ولهذا عبدوا العجل وسألوا موسى بقرة يعبدونها وطلبوا رؤية الله جهرة ..... الخ

وقيل : المراد بالضمير فى قوله تعالى : (وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) قوم نبينا-صلى الله عليه وسلم-أى : وما كان أكثر من دعاهم النبى محمد-صلى الله عليه وسلم-إلى الإيمان-ما كان أكثرهم مؤمنين برسالته ، بعد أن ساق لهم تلك القصص العجيبة التى لاسبيل له إلى العلم بها إلا عن طريق الوحى ، وكان عليهمأن يعتبروا بها ويؤمنوا برسولهم الذى أخبرهم بها ، وقد عرفوه بالصدق والأمانة ، وأنه أُمِّى لا يقرأ ولا يكتب ، واختار هذا الرأى الآلوسى لأن أول السورة وآخرها فى الحديث عنه وتسليته -صلى الله عليه وسلم- عما قالوه فى القرآن العظيم ، ونهيه صريحاً وإشارة عن أن يذهب بنفسه الشريفة عليهم حسرات ، كل ذلك يقتضى رجوع الضمير إلى قومه-عليه السلام-دون الرجوع إلى الأقرب لفظاً ، ليكون الارتباط على هذا بين الآيات أقوى .

٦٨ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : وإن خالقك ومربيك وحده دون غيره هو الغالب على كل ما يريده من الأمور التى من جملتها الانتقام من الكفرة : (الرَّحِيمُ) المبالغ فى الرحمة ولذلك يمهلهم ولا يعجل

بعقوبتهم مع عدم إيمانهم ، أو العزيز فى انتقامه ممن كفر ، الرحيم لمن تاب وآمن ، والتعرض لوصف الربوبية مع الإضافة إلى ضميره - صلى الله عليه وسلم - لتشريفه - عليه السلام - وتقديم العزيز ؛ لأنه أظهر فى بيان القدرة ، وهكذا شاءت إرادة الله ولاراد لمشيئته أن ينصر الحق وأهله وأن يذل الباطل وحزبه ، وأن يخلص بنى إسرائيل من براثن فرعون .

(وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ
مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ
هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾
قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم
مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ
لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾)

المفـردات :

(نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) : النبأ الخبر ذو الفائدة العظيمة الذى يحصل به علم أو غلبة ظن كما قال الراغب .

(عَاكِفِينَ) : مقبلين عليه مع المواظبة .

(الأَقْدَمُونَ) : السابقون الواغلون فى القدم .

التفسير

٦٩ - (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ) :

أمر الله تعالى نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - أن يتلو على أمته نبأ إبراهيم الذى يدينون له بالولاء والنبوة ، ليقتدوا به فى الإخلاص والتوكل ، وعبادة الله وحده لاشريك له والتبرؤ

من الشرك وأهله ، فإن الله تعالى آتى إبراهيم رشده من قبل ، أى : من صغره إلى كبره فإنه منذ شب أنكر على قومه عبادة الأصنام ، وقد حكى الله قصص الأنبياء فى هذه السورة بطريقة الإخبار ، أما قصة إبراهيم فقد تغير الأسلوب فيها من الإخبار إلى أمر الرسول بتلاوتها على قومه ، لزعمهم أنهم على شريعة إبراهيم الذى ينتسبون إليه ويفتخرون به ، مع أنهم بعيدون عن منهجه فى العقيدة كل البعد ، فهو إمام الموحدين ، وهم أئمة الوثنيين.

٧٠ـ (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ) :

تضمنت هذه الآية أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ ، سأل قومه عما يعبدون ، لا لجهله بمعبوداتهم ، بل ليبنى على جوابهم أنها بمعزل عن استحقاق العبادة .

والمعنى : واتل ـ يا محمد ـ على قومك من قريش خبر إبراهيم العظيم ـ خبره ـ حين قال لقومه سائلا عن معبوداتهم : أى شىء تعبدونه ؟

٧١ـ (قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ) :

قالوا بطريق المباهاة : نعبد أصنامًا فنقيم على عبادتها تعظيمًا لها وتمجيدًا ، ولم يقتصروا فى جوابهم على بيان أنهم يعبدون أصناما فحسب ، بل أطنبوا فى وصفها حيث بينوا تمسكهم بها ، ودوام عكوفهم على عبادتها مع أنه لم يسألهم عن هذه التفصيلات : فعلوا ذلك قصدا إلى إظهار ما فى نفوسهم الخبيثة من الابتهاج والافتخار بذلك .

والمراد بالظلول : الدوام ، كما فى قولهم : لو ظل الظلم هلك الناس : وقيل : فعل الشىء نهارا ؛ فقد كانوا يعبدونها بالنهار والكواكب بالليل ، واختار بعضهم الأول لتبادره وكونه أكثر مناسبة للمقام ، واختار الزمخشرى الثانى ؛ لأنه أصل المعنى وهو مناسب للمقام أيضا ؛ لأنه يدل على إعلانهم عبادتها ، وجاء النظم الحكيم على هذا النسق فقال : « فَنَظَلُّ لَهَا » دون (فنظل عليها) لإفادة معنى زائد ، كأنهم قالوا : فنظل لأجلها مقبلين على عبادتها .

٧٢ـ (قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ) :

أى : قال إبراهيم معقبا على إيمانهم مبكتا لهم : هل تسمعكم هذه الآلهة المزعومة حين تدعونهم فى قضاء حاجاتكم ، أو حين تعبدونهم ؟

وهذا الأُسلوب أبلغ فى التبكيت، والقصد منه : التنبيه على فساد عقلهم وسوء حالهم وأمرهم ، وأن عبادتهم الأَصنام وافتخارهم بذلك سفه وسوءُ رأى .

٧٣ـ (أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ) :

أى: هل ينفعونكم بسبب عبادتكم لهم أو يضرونكم بترككم لعبادتهم ؟ إذ لابد للعبادة من مقصد من هذه المقاصد ،حيث كانت على ما وصفتم من المبالغة فيها والحفاوة بها والإقامة عليها ، فهل لأَصنامكم التى آثرتموها بالعبادة صفةالنفع أو الضر ؟ .

وتقرع كلمات إبراهيم آذانهم ملجمة لهم ، وتظهر حجته على فسادمسلكهم ، مفحمة إياهم حيث لا تجيب الأَصنام دعاءً ولا تسمع نداءً ولا تأْتى بخير ولا تدفع بلاءً ، فيجيبون بما حكاه الله بقوله :

٧٤ـ (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعلُونَ) :

أى :ليس لآلهتنا شىء من ذلك ، وإنما وجدنا آباءنا يفعلون مثل فعلنا ويعبدونهم مثل عبادتنا فاقتدينا بهم وقلدناهم فيما يفعلون .

٧٥ ، ٧٦ـ (قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ) :

قال إبراهيم مبكتا لهم : أى : أتأَملتم فعلمتم حق العلم أى شئ كنتم تقيمون على عبادته أنتم ومن سبقكم من آبائكم القدامى ، فهل تقليد الآباء يصلح الاحتجاج به على صحة العبادة وأُلوهية المعبود ؟ .

٧٧ـ (فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلاَّ رَبَّ[1] الْعَالَمِينَ) :

فى هذه الآية بيان لحال ما يعبدونه من دون الله ، من الضرر العائد من جهتهم على عابديهم بعد بيان غفلة العابدين عن ذلك ، فهو يريد بعداوتها له عداوتها لعابديها ، فإنهم يتضررون بعبادتها ، أى : فاعلموا أَيُّها العابدون أنهم أعداءٌ لعابديهم الذين يحبونهم كحب الله تعالى ، لتضررهم من جهتهم فوق ما يتضرر المرءُ من جهة عدوه ، وصور إبراهيم عليه

(١) قال الزجاج فى إعراب : « إلا رب العالمين » استثناء من الضمير العائد على (ما تعبدون) باعتباره شاملا لله عز وجل .

السلام-الأمر فى نفسه تعريضا بهم ، كما فى قوله تعالى : « وَمَالِيَ لَآ أَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ »(١) ليكون أبلغ فى النصح وأدعى للقبول ، وأبعث على الاستماع لينظروا فيقولوا : ما نصحنا إبراهيم إلَّا بما نصح به نفسه ، ولو قال : فإنهم عدو لكم لم يكن بهذه المثابة ،وقد يبلغ التعريض للمنصوح مالا يبلغه التصريح ، لأنه يتأمل فيه ، فربما قاده التأمل إلى التقبل .

وكلمة (عدو) تستعمل فى الواحد والجمع ، ولذا أخبر بها عن ضمير الجمع .

(إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ) : استثناءٌ منقطع من ضمير (فَإِنَّهُمْ) واختاره الزمخشرى ،أى :لكن رب العالمين ليس عدوًّا لى فإنه - سبحانه - ولى من عبده فى الدنيا والآخرة .

والمعنى : فإن الذين تعبدونهم من دون الله عدو لى ولكم ، فلا أعبدهم لكن أعبد خالق العالمين ومُرَبِّيهم .

(ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾)

المفردات :

(أَطْمَعُ) : أرغب .

(يَوْمَ الدِّينِ) : يوم الجزاء ، مأخوذ من دانه :بمعنى جازاه .

التفسير

٧٨ - (الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ) :

(الَّذِى خَلَقَنِى) : صفة لرب العالمين ، ووصفه تعالى بذلك وبما عطف عليه مع اندراج الكل تحت ربوبيته-تعالى - زيادة فى الإيضاح فى مقام الإرشاد ، وتصريحًا بالنعم ،

(١) سورة يس ، الآية : ٢٢

وتفصيلا لها لكونها أدخل فى اقتضاء تخصيص العبادة به تعالى ، وقصر الالتجاء فى جلب المنافع ، ودفع المضار العاجلة والآجلة على الله سبحانه .

(فَهُوَ يَهْدِينِ) : عطف على الصلة ، أى :فهو يهدينى وحده -جل شأنه -إلى كل ما يهمنى ويصلحنى من أمور الحياة الدنيا وشئون المعاد هداية متجددة مع الاستمرار من مبدأ الحياة كما ينبئ عنه الفاء وصيغة المضارع ؛فإنه تعالى يهدى كل ما خلقه لما خلق له هداية يتمكن بها من جلب منافعه ودفع مضاره ، إما طبعا وإما اختيارًا ، مبدؤها بالنسبة للإنسان هداية الجنين لامتصاص دم الطمث ، ومنتهاها الهداية إلى طريق الجنة والتنعم بنعيمها المقيم.

٧٩- (وَالَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ) :

الموصول عطف على الموصول الأول ، وإنما كرر الموصول فى المواضع الثلاثة مع كفاية عطف ما فى حيز الصلة من الجُمَل على صلة الموصول الأول ، للإيذان بأن كل واحدة من هذه الصلات نعت جليل له تعالى مستقل فى استيجاب الحكم ، حقيق بأن يتصف بها- سبحانه- ويشكر عليها ، ويعبد من أجلها .

أى :فهو خالقى ورازقى بما سخر ويسر من الأسباب السماوية والأرضية ، فساق المزن وأنزل الماء عذبا زلالا وأحيا به الأرض ، وأخرج به من كل الثمرات رزقا للعباد .

وجىء بلفظ (هو)فى صدر الصلة دون ذكره مع الخلق لشيوع إسناد الإطعام والسقى إلى غيره-عز وجل-فلهذا أعاد الحق فى الإطعام والسقى إلى مصدره والمنعم به سبحانه ، بخلاف الخلق فإنه لا يستعمل فى غيره ، فلهذا لم يحتج إلى ضمير ، فالله سبحانه هو الذى ينبت لعباده طعامهم وغذاءهم وينزل لهم من السماء ماء ليسقيهم ، ولا دخل لهذه الآلهة فى شىء من ذلك ، فكيف أعبد سواه؟ .

٨٠- (وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ) :

عطف على (يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ) نظم معهما فى سلك الصلة لموصول واحد ، لأن الصحة والمرض ينجمان عن الأكل والشرب غالبا ، ونسب المرض الذى هو نقمة إلى نفس العبد ، والشفاء الذى هو نعمة إلى الله -عز وجل - لمراعاة حسن الأدب ، كما حكاه

القرآن الكريم عن الخضر-عليه السلام- بقوله : «فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا»[1] وقال : «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا»[2] ولا يرد إسناد الإماتة - وهى أشد من المرض إليه- عز وجل - فى قوله تعالى : (وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ) لإمكان الفرق بأن الموت قد علم واشتهر أنه قضاءٌ محتوم من الله-عز وجل- على سائر البشر ، وحكم عام فالتأسى بعموم الموت يسقط أثر كونه نقمة ، فيسوغ الأدب نسبته إليه تعالى ،وليس المرض كذلك فقد يتفق وقد لا يتفق .

والمعنى : وإذا وقعت فى مرض فإنه لا يقدر على شفائى أحد غيره بما يقدر عليه من الأسباب الموصلة إليه .

٨١- (وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ) :

المعنى : والذى يميتنى إذا جاء أجلى ، والذى يحيينى مرة أخرى للحساب والجزاء ، وقيل : إن الموت لأهل الكمال وسيلة إلى نيل ما أعده الله لهم من نعيم دائم تحتقر معه الحياة الدنيوية وفيه تخليص للعاصى من اكتساب السيئات ، فلهذا يعتبر نعمة فلذا أُسند إليه سبحانه.

٨٢- (وَالَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ الدِّينِ) :

لم يكن لإبراهيم-عليه السلام-خطايا ، لأنه أبو الأنبياء وخليل الرحمن ، وإنما أضاف الخطيئة إلى نفسه بالنسبة إلى ربه أمام قومه ، هضما لنفسه وتنبيها لأبيه وقومه أن يتأملوا فى أمرهم ليعلموا أنهم من سوء الحال فى درجة شديدة ، وهم مع ذلك بعيدون عن الرجوع إلى الله بالتوبة من الشرك والمعاصى ، وليعلم المسلم أن الأنبياء دائما يطلبون المثل الأعلى فى عبادة الله وطاعته ، وكلما ارتقوا إلى درجة أعلى استصغروا ما كانوا فيه وعدوه قليلا واعتبروه من الخطايا مع أنهم لم تحدث منهم معصية على الإطلاق .

ومغفرة الخطايا سابقة فى علم الله ، وإنما علق إبراهيم-عليه السلام- المغفرة بيوم الدين ؛ لأن أثرها يظهر ويحدث يومئذ ، ولأن فى ذلك تهويلا وإشارة إلى وقوع الجزاء فيه إن لم تغفر .

---

(١) الكهف ، من الآية : ٧٩ (٢) الكهف ، من الآية : ٨٢

(رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ الضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(حُكْمًا) : حكمة وكمالا فى العلم والعمل . (وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ) : المراد بالصالحين ؛ الأنبياء ، والمراد من إلحاقه بهم : أن يجمع بينه وبينهم فى الجنة .

(لِسَانَ صِدْقٍ) : ذكرا حسنًا وثناء جميلا .

(الآخِرِينَ) : القرون التى تأتى بعدى .

(وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ) : لا تهنى على رءوس الأشهاد يوم القيامة ، من الخزى بمعنى الهوان .

(بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) : خالص من الشرك والشك .

التفسير

٨٣ - (رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ) :

لما ذكر لهم من صفاته - عز وجل - ما يدل على كمال لطفه تعالى به ، حمله ذلك على مناجاته سبحانه ودعائه .

ومعنى الحكم : الحكمة التى هى كمال القوة العلمية بأن يكون عالما بالخير لأجل العمل به ، وقيل : يجوز أن يكون المراد بها كمال العلم المتعلق بذات الله وصفاته وسائر شئونه وأحكامه التى يتعبد بها ، والمراد بإلحاقه بالصالحين : أن يوفقه لأعمال تجعله ينتظم

فى سلك الكاملين الراسخين فى الصلاح ، المنزهين عن كبائر الذنوب وصغائرها ، حتى يكون أهلا لخلافة الحق ورياسة الخلق .

وقدم الدعاءَ الأول على الدعاءِ الثانى لأن القوة العلمية مقدمة على القوة العملية ، ولأن العلم صفة للروح ، والعمل صفة البدن ، ولقد دعا إبراهيم-عليه السلام-بدعائه هذا وهو نبى هضمًا لنفسه ، وطلبا للمزيد من الكمالات ، وكان من دعاءِ رسولنا-صلى الله عليه وسلم- : « اللهم أحينا مسلمين وأمتنا مسلمين ، وألحقنا بالصالحين » .

٨٤ - (وَاجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ) :

أى : اجعل لى ذِكرا صادقًا فى جميع الأُمم إلى يوم القيامة .

أى : خلّد ذكرى الجميل فى الدنيا وذلك بتوفيقه للأعمال الصالحة وهدايته إلى السنن المرضية التى يقتدى بها الآخرون ويذكرونه بالخير بسببها وهم صادقون - قال عكرمة : كل أمّة تحبه وتتولاه ، ولا بأس بأن يطلب تخليد ذكره ومدحه لأن الثناء الحسن مما يدل على محبة الله تعالى للعبد ورضاه عنه ، قال تعالى : « وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى »[1] وقال : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا[2] » أى : حبًّا فى قلوب عباده وثناءً حسنا .

ويجوز أن يراد بالآخرين : أُمة يبعث فيها نبى ، وأنه-عليه السلام-طلب الصيت الحسن والذكر الجميل فيهم بأن يبعث منهم نبى يجدد أصل دينه ، ويدعو الناس إلى ما كان يدعوهم إليه من التوحيد ، معلنا أن ذلك ملة إبراهيم-عليه السلام- فكأنه طلب بعثة نبى فى آخر الزمان لا تنسخ شريعته إلى يوم القيامة ، وليس ذلك إلا بعثة نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وقد طلب بعثته -عليه السلام- بما هو أصرح من ذلك وهو قوله تعالى : « رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ[3] » ولذا قال-صلى الله عليه وسلم- : « أنا دعوة إبراهيم عليه السلام » .

ويكون المعنى حينئذ : واجعل لى صاحب لسان صادق فى الآخرين ، أو اجعل لى داعيًا إلى الحق صادقًا فى الآخرين ، واستدل الإمام مالك بهذه الآية على أنه لا بأس أن يحب الرجل أن يثنى عليه ، والأُمور بمقاصدها .

(١) سورة طه ، من الآية : ٣٩ (٢) سورة مريم ، الآية : ٩٦ (٣) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٩

٨٥ - (وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ [١]) :

قال ابن كثير: بعد أن طلب أن ينعم الله عليه فى الدنيا ببقاء الذكر الجميل بعده طلب أن ينعم عليه فى الآخرة بأن يجعله من ورثة جنة النعيم ، وذلك لأن المؤمنين يرثون منازل الكفار فى الجنة ، لأنهم قاموا بما وجب عليهم لله من عبادته وحسن طاعته وعدم الإشراك به دونهم ، فأحرزوا نصيبهم فى الجنة ، عن أبى هريرة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قال : « ما منكم أحد إلا وله منزلان : منزل فى الجنة ، ومنزل فى النار ، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله ، فذلك قول الله - عز وجل - : « أُولَـٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ » ويجوز أن يسمى الحصول على الجنة وراثة لحصولهم عليها دون غيرهم ، ولأنهم يتصرفون فيها كما يتصرف الوارث فى ميراثه .

واستدل بدعائه -عليه السلام- بهذا مع ما تقدم من الأدعية على أن العمل الصالح لا يوجب دخول الجنة ، وكذلك كون العبد ذا منزلة عند الله - عز وجل - وإلا لا ستغنى -عليه السلام- عن طلب الكمال فى العلم والعمل والإلحاق بالصالحين ذوى الزلفى ، وأنت تعلم أنه يحسن الإطالة فى مقام الابتهال .

والمعنى : واجعلنى من عبادك الذين منحتهم نعيم الجنة ثوابا على إيمانهم بك وعبادتهم لك.

٨٦ - (وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) :

والمعنى : وفقه للإيمان ؛ كما يلوح به تعليله بقوله : (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) : أى المشركين أى : اجعل أبى أهلا للمغفرة ، بتوفيقه للإسلام ، قال ابن عباس فى تفسيرها : امنن عليه بتوبة يستحق بها مغفرتك ، وكان أبوه آزر قد وعده بالإيمان ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وكف عن الدعاء .

---

(١) قال الراغب : الوراثة والإرث : انتقال قنية إليك عن غيرك من غير عقد ولا ما يجرى مجرى العقد ، وسمى بذلك المنتقل عن الميت فيقال للقنية الموروثة : ميراث وإرث ويقال : أورثنى الميت كذا وأورثنى الله كذا قال تعالى : «وأورثنا القوم» ويقال لكل من حصل له شىء من غير تعب : قد ورث كذا ، وقال صاحب القاموس : أورثه أبوه وورثه جعله من ورثته ، والوارث : الباقى بعد فناء الخلق ، وفى الدعاء : أمتعنى بسمعى وبصرى واجعله الوارث منى ، أى : أبقه معى .

٨٧ - (وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ) :

أى : أجرنى من الخزى والهوان يوم القيامة ، حين يبعث الخلائق أولهم وآخرهم فلاتؤاخذنى على ما فرط منى من التقصير عن رتبة الكمال ، ويجوز أن يكون ذلك تعليما لغيره .

٨٨ - (يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ) :

بدل من يوم يبعثون ، جىء به تأكيدا للتهويل وتمهيدا لما يعقبه من الاستثناء ،أى : لا تخزنى يوم لا ينفع مال يفتدى به المرء نفسه من عذاب الله ولو كان ملء الأرض ذهبا ، ولا ينفعه بنون مهما كان عددهم ، فكل امرىء بما كسب رهين .

٨٩ - (إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) :

أى :أنه لا ينفع أحدا يوم القيامة ماله ولا بنوه إلا من جاء ربه حينئذ بقلب برىء من مرض الكفر والنفاق وغيرهما من سائر أمراض القلب ، وفيه تأكيد لكون استغفار إبراهيم لأبيه ،كان المراد منه أن يغفر له بعد توبته من كفره ، لامتناع طلب المغفرة له وهو كافر مصر على كفره، والقلب السليم كما قال سعيد بن المسيب : هو القلب الصحيح ، وهو قلب المؤمن لأن الكافر والمنافق مريض،قال الله تعالى: «فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ »[1] وخص القلب بالذكر ،لأنه إذا سلم سلمت الجوارح ، وإذا فسد فسدت ، وهذه أولى صفات يوم القيامة يوم لاينفع فيه مال ولا بنون ،فالناس فيه جردوا من مالهم وحولهم وطولهم،ونَجَاتُهُمْ هناك وعزهم بقلب خلى من الزيغ وفساد الاعتقاد ،نقى من الشرك والران .

(١) سورة البقرة ، من الآية : ١٠

(وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾
وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ
إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا
لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ
إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾
فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً
وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾)

المفردات :

(أُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ) : قُرِّبت وأُدنيت . (بُرِّزَتِ) : أُظهرت . (الْجَحِيمُ) : جهنم .

(لِلْغَاوِينَ) : للكافرين الذين ضلوا ، والغواية - بفتح الغين - : الضلال .

(فَكُبْكِبُوا فِيهَا) : فرمى بعضهم على بعض فى الجحيم منكبين على وجوههم .

(ضَلَالٍ مُّبِينٍ) : زيغ عن الحق واضح . (كَرَّةً) : عودة ورجعة إلى الدنيا .

(صَدِيقٍ حَمِيمٍ) : حبيب قريب يهتم بهم ، من الاحتمام ، بمعنى : الاهتمام .

التفسير

٩٠ - (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ) :

أى : قُرِّبَتْ الجنة من المتقين الذين اتقوا الكفر وسائر المعاصى بحيث يشاهدونها من الموقف ، ويقفون على ما فيها من فنون المحاسن فيبتهجون بأنهم الذاهبون إليها ، وأما المؤمنون العصاة

الذين غلبت معاصيهم على طاعاتهم ، فإنها لا تقرب منهم إلا بعد عقابهم على معاصيهم ، ما لم يعف الله عنهم .

٩١ - (وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ) :

أى : أظهرت وكشف عنها للذين ضلوا عن طريق الحق والإيمان بحيث يرونها ويبصرون أهوالها ويتحسرون على أنهم المسوقون إليها ، المحشورون فيها ، ويوقنون بأنهم مواقعوها ولا يجدون عنها مصرفا .

والتعبير فى جانب الجنة بالإزلاف الذى هو غاية التقريب للإيذان بقرب دخول المتقين إليها ، أما فى جانب النار فقد عبر بالإبراز للإيذان بأنها تبدو للغاوين ولو من بعيد ، تعجيلا بمساءتهم .

٩٢ ، ٩٣ - (وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ) :

أى : يقال لهم على سبيل التوبيخ : أين آلهتكم التى كنتم تعبدونها من دون الله وتزعمون أنهم شفعاؤكم فى هذا الوقت ؟ .

(هَلْ يَنصُرُونَكُمْ) : بدفع ما تشاهدون من الجحيم وما فيها من العذاب الشديد وعظيم الأهوال (أَوْ يَنتَصِرُونَ) : بدفع ذلك عن أنفسهم .

أى : ليست الآلهة التى عبدتموها من دون الله من تلك الأصنام والأنداد تغنى عنكم اليوم شيئا ولا تدفع عن أنفسها فإنكم وإياها اليوم حصب جهنم أنتم لها واردون .

٩٤ - (فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ) :

أى : ألقى الأصنام فى الجحيم على وجوههم مرة بعد أخرى (فالكبكبة) تكرير لكب جعل التكرير فى اللفظ دليلا على التكرير فى المعنى ، كأنه إذا ألقى فى جهنم يكب مرة بعد أخرى حتى يستقر فى قعرها ، وضمير الجمع فى قوله : « كبكبوا » لما يعبدون من دون الله وهم الأصنام ، وأكد بالضمير المنفصل أعنى (هم) ، وكلا الضميرين للعقلاء ، واستعملا فى الأصنام تهكما ، والغاوون هم الذين عبدوها ، والتعبير عنهم بهذا العنوان دون (العابدون) تسجيل لوصف الغواية عليهم ، وفى تأخير ذكرهم عن ذكر آلهتهم رمز إلى أنهم يؤخرون

فى الكبكبة عنها ليشاهدوا سوء حالها وضعفها وهوانها وضعتها ، فيقطع رجاؤهم فى النجاة قبل دخول الجحيم ، وقيل : ضمير (فكبكبوا) للمشركين مطلقا ، والغاوون هم القادة المتَّبعون .

٩٥ـ (وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ) :

المراد من جنود إبليس : من يساعدونه على إغواء البشر من شياطين الجن والإنس أى : أُلقى فيها الأصنام والغاوون الذين عبدوها ، وجنود إبليس أُلقى فيها هؤلاء أجمعون ليعذب كل منهم على جريرته ، أما الأصنام ، فإنها تشاركهم النار لاعقابا لها ، بل لبيان أنهم لا قدرة لهم على نفعهم ، كما لا قدرة لهم على إنقاذ أنفسهم .

٩٦ـ (قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ) :

استئناف وقع جوابا عن سؤال نشأ عما قبله ، كأنه قيل : كبكب الآلهة والغاوون ـ عبدتها ـ والشياطين الداعون لها فما الذى حدث بعد ذلك ؟

أى : قال الغاوون من العبدة يخاصمون آلهتهم ، ويلومون أنفسهم على عبادتها ، ويتحسرون على تقديسها حيث يجعلها الله أهلا للخطاب يومئذ ، وقال الزمخشرى : ويجوز أن يجرى ذلك التخاصم بين العصاة والشياطين .

٩٧ ، ٩٨ ـ (تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ) .

(إنْ) فى قوله : « إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ » مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن :

والمعنى : والله إن شأننا أننا كنا فى دنيانا فى ضلال عن الحق واضح ، حين سوينا كم أيها الأصنام برب العالمين فى استحقاق العبادة ، مع أنكم أدنى مخلوقاته وأذلها ، يقولون ذلك تحسرا على مافاتهم من أسباب النجاة ، وبيانا لخطئهم فى رأيهم مع وضوح الحق ، وقد أكدوا ذلك بالقسم ، واستعملوا فيه حرف التاء المفيدة للتعجب كما قاله بعض النحاة .

٩٩ـ (وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلاَّ الْمُجْرِمُونَ) :

بيان لسبب ضلالهم بعد اعترافهم بصدوره عنهم .

أى : وما أضلنا عن الحق إلا المجرمون من شياطين الجن والإنس الذين زينوا لنا عبادة الأصنام ، فأنت تراهم فى هذا الاعتراف ينفون عن الأصنام إضلالهم ، ويحيلونه على المجرمين من الشياطين . وذلك بعد أن اتضح لهم الحال فإن الأصنام لاتباشر إضلال عابديها .

١٠٠ ، ١٠١ - (فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ . وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ) :

أى : فما لنا شفعاء يشفعون لنا كما نرى المؤمنين لهم شفعاء من الملائكة والنبيين والمؤمنين . ولا صديق قريب مشفق يهتم لأمرنا كما نرى لهم أصدقاء لأنه لايتصادق فى الآخرة إلا المؤمنون ، وأما أهل النار فبينهم التعادى والتباغض والمراد : تأسفهم على فقد شفيع يشفع لهم مما هم فيه أو صديق شفيق يهمه ذلك ، وقد تدرجوا فى التأسف لمزيد انحطاط حالهم حيث نفوا أولا أن يكون لهم من ينفعهم فى تخليصهم من العذاب بشفاعته ، ونفوا ثانيا أن يكون لهم من يهمه أمرهم ويشفق عليهم ويتوجع لهم وإن لم يخلصهم .

قال صاحب الكشاف : جمع (الشافع) لكثرة الشفعاء . ووحد (الصديق) لقلته . اهـ

ويجوز أن يراد بالصديق الجمع فإنه يطلق عليه لأنه على زنة المصدر أو لأنه نكرة فى سياق النفى فتعم .

١٠٢ - (فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) :

لو مستعملة فى التمنى بدليل نصب قوله تعالى : (فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فى جوابها .

والمعنى : فليت لنا رجعة إلى الدنيا فنكون من المؤمنين فلا ينالنا إذا متنا فبعثنا مثل ما نحن فيه من العذاب الذى لا ينفع فيه أحد - ليت لنا عودة إلى الدنيا مرة أخرى فنصحح خطأنا ونحطم أصنامنا ونعبد ربنا ونكون من المؤمنين به وحده ، فإذا كان البعث قربت لنا الجنة وشفع لنا الملائكة والأنبياء وكان إلى جوارنا الأصدقاء والأخلاء .

قال الزمخشرى : وما أحسن مارتب إبراهيم - عليه السلام - كلامه مع المشركين حيث سألهم أولا عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتهم فأبطل أمرها

بأنها لاتضر ولاتبصر ولا تسمع ، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فأبطله وأخرجه من أن يكون شبهةً ، فضلا عن أن يكون حجة ، ثم صور المسألة فى نفسه دونهم ، حتى تخلص منها إلى ذكر الله - عز وجل - فعظَّم شأنه وعدّد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع مايرجى فى الآخرة من رحمته ، ثم أتبع ذلك أن دعاه بدعوات المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين - ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال ، وتمنى الكرَّة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا .

١٠٣ - (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

(إِنَّ فِي ذَٰلِكَ)أى : فيما ذكر من نبأ إبراهيم - عليه السلام - ومحاجته لقومه وإقامة الحجج عليهم فى التوحيد (لآية) عظيمة ودلالة واضحة على خطأ عبادة الأصنام ، وبخاصة أهل مكة الذين يدعون أنهم على ملة إبراهيم - عليه السلام - فعليهم أن يجتنبوا كل الاجتناب ما هم عليه من عبادتها خوف أن يحيق بهم هذا العذاب بحكم الاشتراك فيما يوجبه .

ويجوز أن يكون المعنى : إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم - عليه السلام - على حقيقته من غير أن تسمعه يا محمد من أحد لآية عظيمة دالة على أن ما تتلوه عليهم - وهو صادق - نازل من عند الله تعالى موجب للإيمان .

(وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ) :

أى : وما كان أكثر هؤلاء الذين تتلو عليهم نبأ إبراهيم مؤمنين ، بل هم مصرون على ماهم عليه من الكفر والضلال ، وقيل : ضمير (أكثرهم) لقوم إبراهيم ، وليس بشىء .

١٠٤ - (وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ) :

أى : لهو القادر على تعجيل العقوبة لقومك ولكن يمهلهم رحمة بهم ليؤمن منهم أو من ذرياتهم من شاء الله إيمانه .

(كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ
أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾
وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾
فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾)

قص الله - سبحانه وتعالى - فيما تقدم قصة موسى ، وقصة إبراهيم - عليهما السلام - وفى هذه الآيات إخبار من الله - عز وجل - عن قصة عبده ورسوله نوح - عليه السلام - إلى أهل الأرض بعد أن عبدوا الأصنام ، وتكذيبهم لرسالته وعقابهم بالطوفان على هذا التكذيب .

والحكمة فى ذكر هذه القصص :

(١) تسلية النبى - صلى الله عليه وسلم - الذى كانت شفقته على قومه سببا فى جهده وألمه بسبب كفرهم .

(٢) تخويف قومه بما وقع على الأمم السابقة من عذاب بسبب كفرهم وعصيانهم لأنبيائهم .

التفسير

١٠٥ - (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ) :

قال صاحب المختار : القوم : الرجال دون النساء .

وقال زهير :

وما أدرى ولست إخال أدرى   أَقَوْمٌ آل حصن أم نساء

وقال تعالى : « لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ »[1] ثم قال : « وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ » وربما دخل فيه النساء على سبيل التَّبَع كما هنا ، لأن قوم كل نبى رجال ونساء ، والقوم يذكر ويؤنث لأن أسماء الجموع التى لا واحد لها من لفظها إذا كانت للآدميين تذكر وتؤنث مثل الرهط والنفر والقوم ، قال تعالى : « وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ »[2] وقال هنا : (كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ) اهـ : من مختار الصحاح .

(١) سورة الحجرات ، من الآية : ١١   (٢) سورة الأنعام ، من الآية : ٦٥

وتكذيب قوم نوح المرسلين باعتبار إجماع الكل على التوحيد وأصول الشرائع التى لا تختلف باختلاف الأزمنة والأعصار ، فمن كذب رسولاً فقد كذب الرسل ، ويجوز أن يراد بالمرسلين :نوح-عليه السلام-بجعل اللام للجنس، كما يقال : فلان يركب الدواب ويلبس البرود ، وماله إلا دابة وبردة .

١٠٦ - (إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ) :

(إِذْ قَالَ لَهُمْ) : ظرف للتكذيب ،والمراد بأخوته لقومه أنه ابن أبيهم ،فهوشريكهم فى أخوة النسب ، وقيل :من قول العرب :يا أخا تميم يريدون واحدا منهم .

(أَلَا تَتَّقُونَ) : أى ألا تخافون الله - عز وجل - حيث تعبدون غيره .

١٠٧ - (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ) :

أى : إنى رسول من الله إليكم ،صادق فيما أبلغكم عن الله من شريعة ، لا أزيد فيها ولا أنقص منها ، وقيل :أمين فيما بينكم لأنهم عرفوا أمانته كما عرفت قريش أمانة محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة وكانت تلقبه بالصادق الأمين .

١٠٨ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) :

أى :اجعلوا أنفسكم فى وقاية من عذاب الله بطاعته ، وأطيعونى فيما آمركم به من التوحيد والطاعة لله ، وقدم الأمر بتقوى الله على الطاعة لأن التقوى سبب الطاعة .

١٠٩ - (وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) :

وما أسألكم على ما أنا مُتصَدٍّ له من الدعاء والنصح أجرا من مال أو سواه ، وما أجرى فى دعوتى لكم إلى الحق (إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) فهو سبحانه الذى يؤجرنى على ذلك تفضلا منه ، لاغيره .

١١٠ - (فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) :

أى : وإذا كنت لا أسألكم على دعوتكم أجرا ، فذلك برهان على صدقى ،فاتقوا الله وخافوه وامتثلوا أوامره ، وأطيعونى فيما بلغتكم عنه .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى حسن على

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/ ١٩٨٤

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

٦٨٤٨ س ١٩٨٣ - ٤ - ٢٥٠,٠٣

٢٥